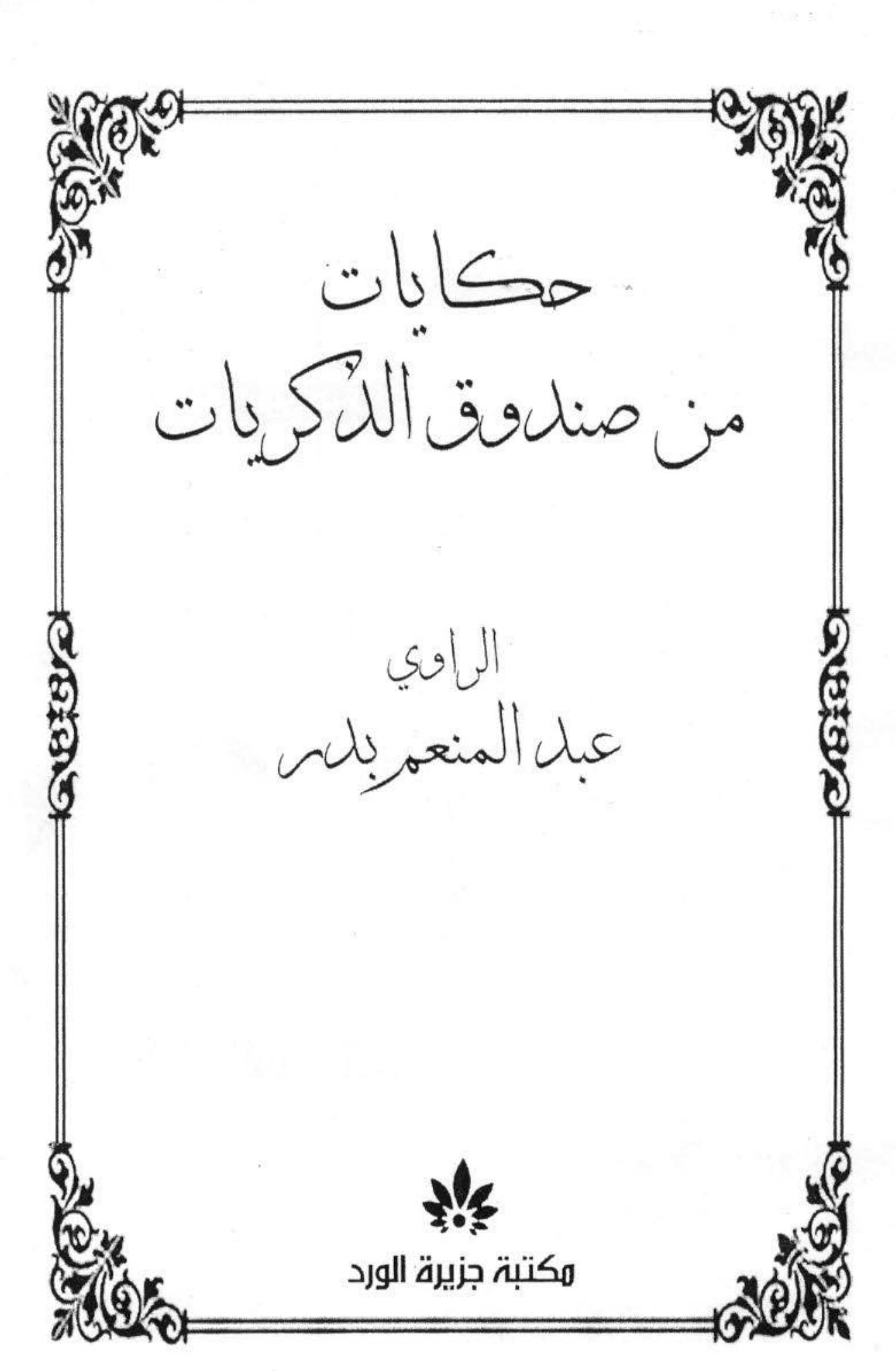


حكايات من صندوق الذكريات

الراوي

عبد المنعم بدر

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : حكايات من صندوق الذكريات

المؤلف : عبد المنعم أحمد بدر

رقم الايداع / ٧٩٠/ ٢٠١٦

الطبعة الأولى ٢٠١٥



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة المؤلف

عجائب مخلوقات الله لا تُحصى ولا تُعد. ومن أبرزها دون تردد «العقل البشرى» بأسراره وقدراته المحيّرة، ومنها الذاكرة والتّذكر. فقدرة العقول على الاستيعاب والتذكر واختلافها من شخص لأخر أمر يدعوا للتفكير والتأمل.

فللبعض قدرات متميزة، وأحياناً خارقة على حفظ الكلمات والنصوص، أو الأحداث والأسماء والتواريخ. وذاكرة أخرى «فوتوغرافية» تحتفظ بتفاصيل الأوجه والألوان، وبمجرد لقاء واحد. وأفراد آخرون قادرون على تذكر اللحظات السعيدة والاحتفاظ بها، والحديث عنها مع الآخرين فى نشوة وسعادة رغم مرور السنين. وعلى النقيض هناك من يحتفظون فى ذاكرتهم بساعات وأيام الحزن المأساوية، ولا يجدون منها فِكاكا. وتأتى بعد ذلك نعمة النسيان!! وأنا أراها نعمة فبدونها قد يَبْقَى الإنسان «يَجْتَرّ» أحزانه فيعوقه ذلك عن مواصله حياته بصورة سوية.

وما دفعنى لكتابة ما تقدم. ما لاحظته مؤخراً بعد تقدم السن من ضعف أصاب الذاكرة «ونسيان مواعيد الأدوية»، على الرغم من أن عقلى لا يتوقف عن إرسال ومضات من الذاكرة عن أماكن وأحداث من سنوات خوالى بعيدة مليئة بالطرائف أحياناً، وباختلاف أساليب الحياة، وتنوع الأحاسيس والعواطف فى أحيان أخرى.

فرأيت أن أسجل بعض هذه الومضات فى صورة مجموعة من الحكايات القصيرة، على أمل أن يكون فيها بعض المتعة للأبناء والأحفاد والقارئ العزيز، قبل أن يتوقف الصندوق الأبيض عن الإرسال فلم يتبق من العمر إلا القليل بطبيعة قانون أو سُنة الحياة.

وقد يتصور القارئ العزيز أن ما كتبته يمكن اعتباره «سيرة ذاتية» رغم أن القالب الذى صيغت به «الحكايات» بعيدة عن هذا التصور صياغة وتسلسلا، ولكن الحقيقة أن العديد من الحكايات تصور ما حدث بالفعل فى مراحل

العمر المختلفة، أو ما علق بالذاكرة من أحاديث وحكايات الكبار عن مراحل لم يكن « الراوى» قد بلغ من العمر ما يسمح له أن يعى، ويتذكر ما حدث، وإنما سجلت الذاكرة، ما سمعه عنها من الآخرين.

عموماً جاءت «الحكايات» فى شبه تتابع تاريخى قدر الإمكان عن المكان والزمان والأحداث والإنسان والعادات وهو أمر طبيعى فالشئ بالشئ يذكر أو يُتذكر، وأرجو أن يكون ما كتبت قد أعطى صورة لما كانت عليه الحياة فى النصف الأول من القرن العشرين، فقلّة هم من عاشوا مثلى ولو جزء من هذه المرحلة، ومازال «صندوقهم الأبيض يرسل الومضات». فحمداً لله على ما أعطى حمداً يليق بعظيم عطائه وجلال ذاته، وما توفيقى إلا بالله.

عبد المنعم أحمد بدر

إهداء

إلى كل من يعى أن الماضى هو الأب الطبيعى والشرعى للحاضر، وبالتالى (جد المستقبل)، وأن سلسلة الزمن متصلة لا تنقطع بلونيها الأبيض والأسود – كنور الصبح وظلمة الليل.

وأن عجلة الزمن لا تتوقف فى انتظار الكسالى والمترددين، وأن التطور والتغير سنه من سنن الكون، تؤثر وتتأثر بأفعال البشر فى عالمهم الأرضى.

وحتى لاينسينا إيقاع الحياة المتسارع وتقنياته الحديثة ما كانت عليه حياة الجدود والأباء، وما كان يسيطر عليها من عادات وتقاليد راسخة، على بساطتها، أساسها المحبة والعطاء وحسن الجوار، لا يكدر صفاءها إلا طباع شعوب، وأفراد جُبلوا على سلب الحقوق، وسفك الدماء، وإشعال الحروب، وبالضرورة تأثير ذلك على الحياة اليومية للبشر.

وباعتبار الأسرة هى نواة المجتمع على مر الزمان، فسرد حكايات عن أسر وعائلات بعينها يُوضّح صور وظروف المكان والزمان، وهى صورة صادقة لحد كبير.

لذا رأيت أن مجموعة الحكايات التالية قد تكون أسهل فى رسم صورة التغيرات التى تطرأ على الإنسان، بفعل تغير ظروف المكان والزمان، وهدفى فى المقام الأول أن تصل تلك الصورة لأعزائى من الأبناء والأحفاد، ومن فى أعمارهم، وكذلك من هم أكبر سناً ليستعيدوا بعض الذكريات عن عقود مضت. وآمل أن يكون فيما كتبت بعض التسلية والفائدة للقارئ العزيز.

وما توفيقى إلا بالله،،،

عبد المنعم أحمد بدر



جامع الملك الصالح



كوبرى طلخا (السكة الحديدية للقطارات)

تقديم الكتاب

عتبة العنوان ودوافع الكتابة

بقلم
د. نادية الجندى
أستاذ الأدب والنقد - جامعة الأزهر

العنوان مفتاح نستطيع من خلاله النفاذ إلى عوالم النص وفك أسراره، وهو نص صغير ينهض بوظيفة شكلية وجمالية ودلالية، هو بمثابة الرأس للجسد الذى هو النص، والعنوان أكبر ما فى النص، إذ له الصدارة، ولكونه أداة تحدد العمل وتعيّنه، فهو رسالة لُغوية، تُفرق بهوية المنتج، فالعنوان على صغر حجمه نص مواز، يعكس حمولة مكثفة لمضامين النص، فهو بمثابة المرآة المحفّزة على القراءة.

وجاء عنوان «من صندوق الذكريات» مرتبطاً إرتباطاً عضوياً بالعمل الذى يعنونه، فيعكس بدقة وأمانه، جاء على رأس النص ليعرّفه، وينوب عنه، وقد تحقق بهذه الرسالة التواصل المعرفى بين المرسِل،والمرسل إليه، ودخل القارئ إلى عالم النص قبل الدخول فى أجوائه،والتطرق إلى محتواه، ومن هنا كان للعنوان دور فى تفعيل عملية القراءة من جهة، واختصار مضمون النص كاملاً من جهة أخرى، فحدّد مسار القراءة التى يمكن لها أن تبدأ من الرؤية الأولى.

هكذا كان العنوان واجهة إعلامية، حدد هوية العمل، مؤدياً وظيفته اللغوية الواصفة، المعينة لجنس النص، كما نهض بوظيفة التسمية، فجاء اسماً على مسمى فالكاتب لم يسجل إلا بعضاً من صندوق الذكريات وليس كل ما فيه، سجل ما يخص فترة الطفولة من سن الرابعة تقريباً حتى المرحلة الثانوية.

وتضمنت مقدمة العمل بيان دافع الكتابة وتسجيل هذه الذكريات، ومن هنا ندرك التماهى بين السرد الذاتى والسرد الموضوعى فى هذا العمل، فقد إتخذ الكاتب نفسه موضوعاً، منصهراً مع غيره (الأهل -الأصدقاء-الجيران-

كما تعلن المقدمة عن حق الكاتب فى الاندماج فى المكان، وحقه فى الانصهار فى الزمن (التاريخ).

وفى ربط الكاتب بين سرد الأحداث والواقع تأكيد للقارئ أن المادة المروية، المحكيِ عنها لها مرجعية واقعية.

والكاتب حينما يكتب سيرة حياته، فإنه يسافر بذاكرته عبر الزمن الماضى ليتذكر أحداثه، وكاتبنا حافظ على تسلسل الأحداث كما حدثت فى الواقع والرغبة فى أسترجاع الذكريات عن أهم دوافع تسجيل سيرة الحياة، وقد صرح الكاتب فى مقدمته بالهدف الذى من أجله قام بهذا الأسترجاع وتسجيله، فهو يريد أن يطلع الأبناء والأحفاد على الفترة الزمنية التى عاشها بعاداتها وتقاليدها، وأساليبها المعيشية، وعلاقات المحبة والتراحم السائدة بين الناس، ولا يخفى سعادة ومتعة الكاتب بهذا الأسترجاع، فالمتعة بتذكر الذات، والتعبير عن أحاسيس الرضا عن النفس، والأعتزاز بقدراتها وسماتها ومواهبها من الدوافع التى حفزت الكاتب لتسجيل هذه الذكريات، فهذا الدافع يدفع صاحبه لاسترجاع رحلته فى الحياة، واستعادة جمال الإحساس بالحياة التى عاشها، وهذا ينسيه الحاضر، وما فيه من مكدرات، ومن هنا لم يغفل الكاتب فى إهدائه ومقدمته من هم أكبر سناً ومن يماثلونه فى العمر، فقراءة هذه الذكريات تحقق لهم المتعة وتعود بهم إلى الزمن الجميل، وتذكر وتمثل ما مّر بهم من أحداث تلتقى إلى حد كبير مع المسرود وعّدد الكاتب جملة القضايا، تعدد وتشابكت وعكست صورة من واقع الحياة، مؤرخاً الواقع الاجتماعى والثقافى والسياسى مع الربط بواقع الحياة الآن، أمِلاً أن يتعرف القراء على المزيد بشأن تلك الحقبة للتعرف على تجربه حياةً اجتماعياً، زاخرة بالمعانى والقيم، يجد فيها القارئ فسحة للتأمل والاعتبار من تجارب الآخرين، واستخلاص العبر لكل زمان ومكان ولذا عمد الكاتب إلى تصوير كل ما أثر فى تكوين الفرد وتطوره العقلى والفكرى، من منابع ثقافية متعددة (كتب- أساتذة- أصدقاء- رحلات وتجارب الحياة) ومن هنا فإننا لا يجب أن نقف عندما صرّح به الكاتب من مقاصد، فالأحرى بنا استنطاق المسرود، وما يكشف عنه من استنتاجات ورسائل ضمنّها عمله ولم يصرح بها مباشرةً.

المبدع هنا هاوٍ، يملك الموهبة الفطرية التى تعبر عن نفسها بتلقائية وبساطة وعفوية، يقدم للمتلقى عمله الخاص به من خلال ما يخطر فى ذهنه أو يراه ويعيشة بروح الفنان وذائقته.

« فإن الضمير الذى تضمنه مضمون العمل الذى بين أيدينا هو المؤلف نفسه، إلا أنه لم يستخدم ضمير الأنا المتكلم بشكل صريح، بل عبر عنه بمثل [الولد الحشرى- الراوى – الحفيد الغلباوى] وغيرها وكأنه يقر أنه ليس منفرداً، وليس الشخصية الأم أو الرئيسية فى معمار عمله أو منتجه، وباعد المؤلف بين عمله وبين السيرة الذاتية، مصرحاً بذلك، ومؤيداً له بهذا المنهج الذى إتبعه، ومفسحاً لغيره من الشخصيات الظهور، والمشاركة فى قضاء الزمان والمكان فى منتجه.

ولذا حفل العمل بعديد من الأسماء والشخصيات التى شكلت بنية العمل، وعكست صورة المجتمع فى تلك الفترة الزمنية، بعاداته وتقاليده، وسماته. ومن الطبيعى أن تختلف أدوار هذه الشخصيات، فمنها مَنْ له دور أساسى، ومنهم مِنْ كان غير فاعل. وهى شخصيات واقعية، يقصد بها الكاتب التوثيق والتاريخ، والأستشهاد الموضوعى.

وقد تحقق الصدق بخصوصية التجربة الإنفعالية فهى هنا منحصرة فى التجربة الشخصية، أى فى مدى عيش الأحداث، ومعرفة أبعادها، وقد تحقق ذلك من خلال تقنيات عدة منها:-

المكان والزمان

وهو الحيز من الفضاء الذى تقدم فيها الوقائع والمواقف، هو الفضاء الجغرافى، والمكان ويؤدى وظيفة موضوعية وبنيوية كوسيلة للتشخيص، ولا سيّما فى كتابات الذات فهو يلعب دوراً هاماً ومحورياً فى تكوين مرجعيات الذات التى تحكى تجربتها، إضافة إلى دوره فى جعل أحداث النص ومواقفة، ووقائعة ممكنه الحدوث، وتشى بواقعيته، وقربه من المعقول، فالمكان هنا ليس مجرد ديكور للحدث فحسب، بل هو رمز لحياة الكاتب، يجسد نمو وتطور الشخصية فى مراحل الحياة المختلفة.

وفى نص [من صندوق الذكريات]نتلمس أمكنة عديدة متنوعة التفاصيل

والأحوال، فالمكان هنا يفرض نفسه بطلاً، وما ذِكْرُ أسماء الأماكن الحقيقة إلا تقنية إستخدامها الكاتب لتوفير أكبر قدر ممكن من الإيهام الذى يجعل المتلقى يؤمن بحقيقة النص وأحداثه، وشخوصه، وحرص الراوى على تسمية الأماكن يشير إلى حرصه على إطفاء بُعْدٍ واقعى للمكان الذى تدور فيه الأحداث وأمثلة ذلك عديدة ذكر المنصورة بأسماء أحيائها، وميادينها وشوارعها وحاراتها، وأسماء مدارسها ومقاهيها، وحدائقها وذكر مدناً أخرى كدمياط ورأس البر وغيرها.

والكاتب يبدأ بعرض المكان ثم بموضوع شخصياته داخلها، محدداً سمات كل فيها، وموضعها من الخريطة الاجتماعية، ويجعل منطق الشخصيات إشارة إلى طبيعتها التكوينية [فبائعة البيض تكسر البيض وتطعمه للراوى الطفل، فهذا بطبيعة منطقها عظيم الفائدة، ومصدر قوة وصحة للطفل] فهو يجعل شخصياته تفضى بعفوية تامة. كما اهتم بتحديد الزمن وتعزيز بعض الأحداث والوقائع بإثبات التاريخ.

الوصف:

عمد الكاتب إلى تقنية الوصف، والإسهاب والتطويل والإطناب فيه، والتصوير والتشخيص، وخصص سطوراً بل صفحات لوصف الشخوص، والأمكنة والأشياء والوسائل، والطبيعة، مستعملاً فى ذلك الأوصاف والنعوت، والأحوال، والصور والتشكيل الفنى البصرى والذهنى، ومن الأمكنة التى وصفها الكاتب منزل أسرته، ودار جده، والمدرسة وكل ما وقع عليه بصره، حتى أن محل قريبة وألوان القيشانى الزاهية برسوماته المميزة كان سبباً لإنقاذه من الضياع وهو فى سن صغيرة.

كما أجاد الكاتب وصف الشخصيات وتصويرها وتفسير منظوماتها الذاتية والموضوعية، ووصف أبعادها الداخلية والخارجية فهو وصف يجمع بين الرسم والوصف الخارجى للشخصية، وبين الوصف النفسى والتعبيرى – لداخل كل شخصية من شخصيات العمل، مما أكسب العمل قيمة.

والكاتب يعتمد على الوصف القائم على الملاحظة الدقيقة، ومن أغراض الوصف فى كتابته التصوير وتأطير الأحداث، وتفسيرها مع تحديد سياقها

الزمانى والمكانى ونقل عالم الواقع وتجسيده فى أحسن صياغة.

اللغة والأسلوب:

نهض العمل على أسلوب سلس وخفيف، ولغة واضحة، بسيطة سهلة، موجه ومعبرة، تتسم بالواقعية، ونبض الحياة، وخاصية التوثيق والتشخيص الواقعى التسجيلى، وتتعاقب فى العمل الجمل البسيطة، وتكثر الجمل الفعلية الدالة على الحركية والتوتر، الذى يتجسد فى دينامية الأفعال، التى كانت تتأرجح بين الأفعال الماضية والمضارعة، ويكثر الحوار البسيط الذى يتناسب مع الشخصيات، وقد نجح الكاتب فى رسم وإظهار دواخل الشخصية من خلال هذا الحوار سواء أكان الأب- أم الأم – الأخ- الأخت- العم- الخال- الأصدقاء- الزملاء- الجيران .....

إن العمل توفر فيه قدر من المتعة فقد لامس نفس المتلقى وداخله، إلى جانب تصويره ما نستدل منه على السمات المميزة لشخصيه صاحبه، وعلى مدى التطور الذى طرأ عليه، وما دار فى نفسه من ألوان مختلفة من الصراع والأحاسيس، مع بساطة السرد، تلك العوامل التى تحقق المتعة، وتثير التعاطف الوجدانى بين الكاتب والمتلقى، ويدعوه إلى المشاركة القوية فى عديد من تجاربه، وخواطره ومشاعره وإنفعالاته.

والنص صورة متكاملة لحياة أسرية تطابق كثيراً حياة جيل عايش هذه الفترة الزمنية.

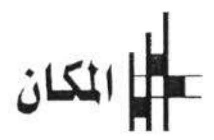




زفاف الملك فاروق والملكة فريدة



زفاف الملك فاروق



المكان

هذا التمهيد أراه ضرورياً لنقل صورة المكان والزمان للقارئ العزيز، أما الزمان فهو بدأ من الثلث الأول من القرن العشرين، وبعد ثورة ١٩، وأما المكان فهو «حى الحوار» بمدينة المنصورة، ومنهما تأتى ومضات من الذاكرة، وبالتالى يصبح وصف «هذا الحى» الذى ولدت فيه ضرورياً لاستكمال الصورة، كواحد من أقدم أحياء المدينة - حينما كانت واحدة من أجمل مدن القطر المصرى- ويقع هذا الحى بين عدد من الشوارع الرئيسية كشارع كورنيش النيل المعروف «بشارع البحر»، ويصله بالحى «شارع المدير»، وكانت به«قهوة شيحة» الشهيرة بنشاطها فى التخطيط لمقاومة الاستعمار البريطانى، ويتفرع شارع الحوار من «ميدان الطُميّهى» حتى يصل إلى شارع البحر مرة أخرى، بجوار واحدة من أقدم المدارس المصرية الحرة «الخاصة» بالمنصورة، وهى «مدرسة الرشاد» لصاحبها «فتحى بك»، والتى جار عليها الزمان، كما جار على أماكن أخرى كثيرة، أو لحق بها ما لحق بكل شيء من تغيير جزئى أو كلّى. فأصبحت أرضها «وأسفاه مقلب للسيارات المستهلكة»!!

وكاتب هذه الومضات كان يحن دائماً لزيارة الحارة المسماه بحاره «بدر» وأحياناً بحارة «أبو ليليه» أو أبو سليمان فى أحيان أخرى وكلها أسماء صحيحة ـ نسبية للعائلات التى تسكنها وتربط بينهم جميعاً صلة الدم أو النسب، أى أنهم أفرع للعائلة الكبيرة، والحارة مغلقة «سد» وعلى شكل رقم ٦ مقلوب «L» ومدخلها من الضلع الأصغر، وبها سبعة منازل متلاصقة، يسكنها عدد من العائلات سالفة الذكر. والحارة متسعة نسبياً عن باقى الحارات، وأرضها مكسوه ببلاطات كبيرة من أحجار البازلت الأسود، وجميع منازلها تتكون من ثلاثه طوابق،لكل منها مدخله المستقل وبعض نوافذها تطل على شارع «الخلا» بخلاف النوافذ المطله على الحارة. أما الأسطح فمعظمها متشابكة، فتسمح لسيدات الأسرة الكبيرة بالتنقل من بيت لأخر دون حاجة للنزول للحارة.لاستخدام المدخل. فالتنقل بين منزل وأخر لا يتطلب إلا تجاوز سور رمزى منخفض يسهل تجاوزه، وقد يتطلب الأمر

صعود أو هبوط درجتين من الخشب، وضعت لعلاج فروقات طفيفة فى الارتفاع لتسهيل الأمر لكبار السن.

ومن المعتاد أن تتجمع بعض سيّدات الأسرة الكبيرة للتعاون فى إنجاز بعض المهام المنزلية، وأهمها إعداد الخبز الطازج يومياً أو حسب الحاجة والإشراف على غسيل ونشر الملابس، أو لإعداد الكعك والمخبوزات الأخرى فى مناسبات عديدة، لها خصوصيتها كتقاليد راسخة. وكل ذلك يتم بروح من المحبة والأخوة والتعاون فى مرح لا يخلو أحياناً من المشاكسات الطريفة بين بنات وسيدات الأسرة، وكل ذلك تحت إشراف كبيرة العائلة الحاجة زينب «أم إبراهيم»، التى أمد الله فى عمرها، حتى تجاوزت التسعين، وتوفاها الله وكاتب «الحكايات» لم يتجاوز الرابعة، ومع ذلك فهو يتذكر جلوسها خلف نافذتها بالدور الأرضى للبيت المواجه لمدخل الحارة، والمدعم بقضبان الحديد، وهى تصدر الأوامر، وتوزع المهام بروح قيادية عالية. جالسة معظم الوقت على «الكنبه الأسطنبلى» الشهيرة فى ذاك الزمان.

أما تصميم المنازل فلا يختلف كثيراً، فجميعها يخصص الدور الأرضى بها «للمضيفة»، وأحياناً غرف الخزين، ومكان للصلاة، أو غرفة ضيوف بها دورة مياة تقليدية. والدورين التاليين للسكن.

أما أسلوب البناء فجميعها من «الجدران الحاملة» التى قد يصل سُمْك الواحد منها قرابة المتروبنيت إما بالقرميد«الطوب الأحمر» أو الأحجار الجيرية «الدبش». والأسقف ترتفع إلى قرابة الخمسة أمتار تُدعمها كتل خشبية قوية تغطى بألواح خشبية سميكة، وتثبّت وتعزل، ثم تدهن «بألوان الزيت» وغالباً باللون الأبيض. أما النوافذ فهى مما جرت العادة على تسمية «بالشيش والزجاج» وتتكون كل نافذة طولياً من قسمين، السفلى أصغر من العلوى ويسمح للجالس على الأريكة «الكنبة الأسطنبولى» لرؤية ما يحدث بالشارع الخلفى أو الحارة. والجزء العلوى أكثر طولاً يسمح بتهوية أفضل دون حاجة «للتكييف» طبعاً، وقد تعلوه فى بعض المنازل حِلْية على شكل نصف دائرة، يتخللها الزجاج الملون بشكل زخرفى بطابع إسلامى، ويمكن اعتبار هذا الطراز تطوراً لفن الأرابيسك الرائع، - الذى بدأ يتراجع حالياً نسبياً لصعوبته، وحاجته للمهارة والذوق الفنى والخبرات المتوارثة-.

وفى الشتاء حين تشتد برودة الجو مع ارتفاع الأسقف، واتساع النوافذ تستعمل دفايات تعمل بالكيروسين أو بإشعال الفحم أو الأخشاب «بالمنقد» الفخارى الشعبى للتدفئة.

ومما تقدم يتضح أن منازل المدن للأسرة المتوسطة وفوق المتوسطة كانت تجمع - إلى حد واضح - بين تصميمات منازل المدن الشائعة فى الثلث الأول من القرن العشرين، وبين الأسلوب الريفى بالقرى لتوفير خدمات يحددها أسلوب الحياة والعادات المتوارثة، كالمضيفة وغرف الخزين، وإستغلال الأسطح لتربية الطيور، والفرن لإعداد الخبز والتى ظهرت أهميتها بشكل أكبر فترة الحربين العالميتين الأولى و الثانية للتغلب على أزمات نقص المواد الغذائية بصفة عامة، حتى فى المخابز «الأفرنجية» التى تنتج أصناف المخبوزات المختلفة للجاليات الأجنبية وما أكثرها فى تلك السنوات!!

وما تقدم، لايقارن طبعاً بالنهضة المعمارية الرائعة التى شهدتها العاصمة في عهد الخديوى إسماعيل الذى كان يهدف لتحويل القاهرة لمدينة لا تقل عن أى عاصمة أوربية.

وعن وسائل الإنتقال داخل المدينة فكان أهمها العربة «الحنطور»التى يجرها الحصان فى الأحياء الراقية أو المتوسطة، والعربة «الكارو» التى يجرها حصان أو حِمار فى الأحياء الشعبية.

وللحفاظ على نظافة الشوارع خاصة من مخلفات الخيول والحمير، كان هناك نهاراً عدد من عِمال النظافة «الكناسين» الذين يؤدون مهامهم بجد ونشاط تحت رقابة صارمة من «الملاحظ». وفى المساء وبعد الحادية عشر تقريباً تنتشر عربات الرش يجرها البغال «الإسترالية» ويتبعها فريق من عمال النظافة لغسيل الأسفلت والأرصفة، وهذا ما رأيناه وعايشناه فى مدينتنا الجميلة فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين. [والله على ما أقول شهيد ورحمةُ الله على أيام البلديات والمديريات!! وعشق النظافة والزهور].

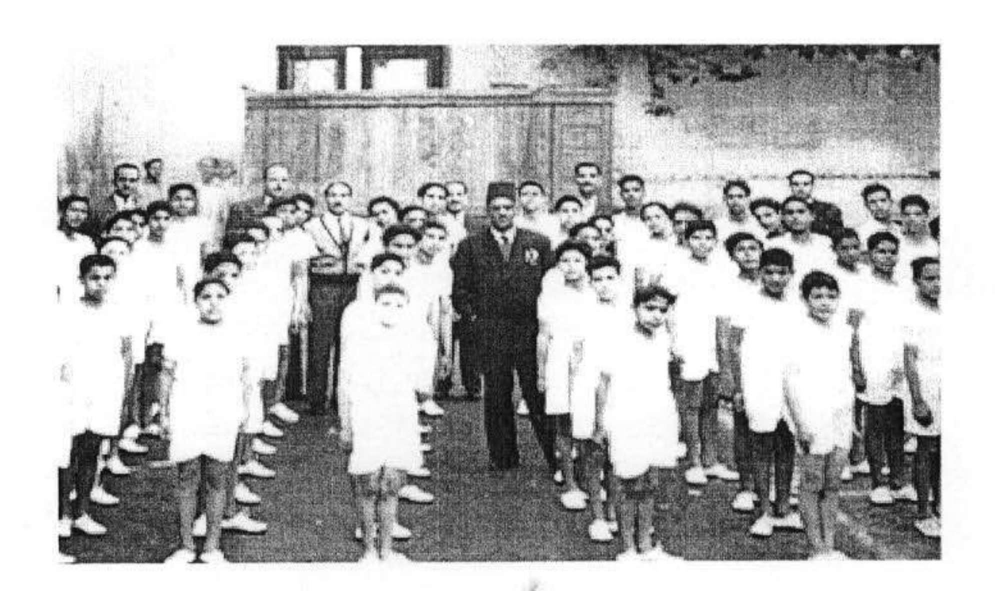
وفيما يلى أقدم للقراء الأعزاء بعض الصور عن الإنسان والمكان، وإختلاف بعض العادات على أمل أن يجد فيها الشباب بعض الصور والعادات التى لم يعايشوها. ويجد فيها الكبار إثارة لبعض الذكريات المنسية.



صور لطلبة وأساتذه المدرسة



صورة لبعض الطلبة





الحاجة أم إبراهيم والحرامي

زينب الكبرى(*) تجلس على أريكتها المفضلة «الكنبة الأسطنبولى» لتطل من نافذة الدور الأرضى للبيت الكبير المواجه لمدخل الحارة، وحولها فى منازل الأسره أو معها بنفس المنزل أبناءها الستة، أربعة من الإناث، وإثنان من الذكور، أكبرهم الحاج إبراهيم أو «شيخ الطريقة» أو الباشمهندس، فجميعها تدل على نفس الشخص.

والأصغر هو الأستاذ أحمد بدر، أكثر أفراد الأسرة حظاً من التعليم، حيث حصل على الكفاءه «التوجيهية» من مدرسة الأقباط، ثم أكمل تعليمه، ربما فى أحد معاهد التربية لتأهيله للعمل كمدرس للغة الأنجليزية ويسبقه فى المولد جميع الشقيقات إلا واحده هى زينب الصغرى.

وأم إبراهيم فى جلستها المعتادة ترصد الداخل والخارج للحارة، فإن رأت أحد أحفادها الكبار الذين قارب عددهم العشرين، فلابد أن تسأل إلى أين هو ذاهب، أو من أين جاء. أما لو كان وجه غريب فتناديه، ليجيب على عدد من الأسئلة- لا تختلف كثيراً عن أسئلة وكلاء النائب العام- فإن كان له حاجة تصدر الأوامر للمحيطين بها لقضاء حاجته فوراً. ولو كان قد ضل الطريق فترسل معه من يصحح له طريقه.

أبناء الأولاد والبنات من الأحفاد الصغار تسمح لهم باللعب داخل حدود الحارة، ومن يلتزم بتعليماتها يكافأ «بالملبس»، والذى تحتفظ به دائماً فى وعاء قريب منها - و المخالف أو من يؤذى أقرانه فيحرم من اللعب، وتأمره بالصعود لمنزله.

(*) وصف الكبرى للتفرقة بينها وبين زينب الصغرى وهى أصغر بناتها. أما الجد للأسرة فهو الحاج «أحمد السيد بدر» وكان يعمل بالتجارة وتوفى قبل أن يراه الأحفاد فيما عدا إثنان هما محمد وأحمد إبراهيم بدر وهما أكبر أحفاده. وقيل أن الراوى هو أكثر أفراد الأسرة شبهاً له.

وهذا النشاط اليومى للجدة «زينب الكبرى» أما زينب الصغرى ورغم أنها مديرة مدرسة الأمة الحرة للروضة و الابتدائية للبنات(*).

إلا أن الحاجة أم إبراهيم تتعامل معها على أنها البنت الصغيرة دائماً، خاصة وأنها لم تتزوج رغم جمالها لانشغالها بالتعليم، وهو أمر غير معتاد من بنات ذاك الزمان. وهذا هو النظام اليومى للحاجة ويبدأ مع صلاة الفجر.

فى أحد الأيام استيقظت الحاجة زينب على صوت هرج ومرج بالحارة، فأسرعت إلى النافذة لتجد بعض شباب العائلة يمسكون «بلص» فى حالة تلبس وهو يحمل ما سرقه من غرفة الخزين، ونال ما ناله من ضرب، فنهرتهم بصرامة صائحة «لا تضربوه»، أحضروه هنا فاقتادوه ليقف أمام نافذتها «التى يطلقون عليها برج المراقبة» فسألته ماذا أخذت؟ فأجابها وهو يرتعد «شوية دقيق» فقالت له فى هدوء [لما تحتاج حاجة تِطْلبها منّى عشان ميقولوش عليك حرامى!!]

ونادت محمد أبو ليلة أحد أحفادها قائلة ـ«إديله كمان كيس تمر من إللى جابه خالك إمبارح. وإلتفتت إلى إبنتها أم محمود الواقفة بجوارها قائله [إللّى **يسرق أكل يا بنتى يبقى جعان مش حرامى]!!**



(*) [ومؤسسها شقيقها أحمد بدر مؤسس مدارس الأمة الخاصة بالمنصورة بعد ثورة ١٩ وهى من أوائل المدارس المصرية الحرة بالمنصورة] غير حكومية.

أقدم الصور

من أقدم الصور التى تلمع فى الذاكرة من حين لآخر، صورة المنزل القديم الذى ولد به الراوى والملاصق للبيت الكبير على يسار الداخل للحارة،وبه المضيفة، وغرف الخزين بالدور الأرضى، ويعلوه بالدور الأول سكن العم إبراهيم كبير العائلة، أما الدور الثانى العلوى فهو لسكنى الأخ الأصغر المعروف باسم حضرة الناظر - مؤسس مدرسة الأمة الوليدة فى بداية العقد الثالث من القرن العشرين -

وما تجود به ومضات عقل الراوى عن هذا المنزل الذى أمضى به الأربعة وربما الخمسة سنوات الأولى من عمره مجرد خليط من الصور، كصورة الغرفة ذات البابين لها باب مستقل على «بسطة» المدخل، وباب أخر يؤدى لباقى المسكن وبها «صالون» لامع من خشب داكن بلون الباذنجان، وأقمشته من القطيفة الحمراء بنفس لون ستارة النافذة، (غير مسموح له أو لشقيقاته بدخولها للعب لأنها غرفة الضيوف) وأرضها الخشبية مغطاة بسجادة متعددة الألوان بنقوش متداخله ،كان الراوى يتحسسها أحياناً محاولاً إكتشاف طريقة رسمها.

أما باقى المسكن فتفاصيله غير واضحة ،فيما عدى غرفة نوم الوالد الرئيسيه وهى من نفس نوع الخشب اللامع الداكن اللون، الذى عرف الراوى قيمته مع تقدم العمر بأنه «روز وود» ويعتبر من أفخر أنواع الأخشاب لصناعة الأثاث - والغرفة بها صوان ضخم للملابس، يتوسطه مرآه كبيرة تحظى باهتمام خاص لتنظيفها يومياً، والغرفة بها قطعة أثاث أخرى تسمى «التسريحة» بنفس اللون، ويظل تصميمها يحير الراوى فهى تتكون من قسمين متطابقين، بكل منهما مجموعة من الأدراج متراصة من أسفل لأعلى، وجزءها العلوى به مرآه طولية متحركة، وجزء يحفظ بداخله أدوات التجميل والزينه والحلى، ويغلق بغطاء متحرك مزين بزجاج غير شفاف، عليه رسومات بارزة،

وبها أيضاً مكان يضع فيه الوالد أدوات الحلاقة ويربط بينهما مرآه كبيرة معلقة على مفصلين متحركين.

أما السرير فهو مخالف لباقى الأثاث، لأنه من النحاس الأصفر اللامع بأعمدة مرتفعة ،يربط بينها أجزاء أخرى من النحاس المشغول بحليات متعددة ناحية رأس وقدمى النائم فى صوره جمالية يصعب أى تغيب عن الذاكرة، وخاصة «الناموسية» التى تفرد وتتدلى لتحمى النائم من لسع الناموس مساءً. أما بالنهار فهى تضم وتربط بشريط لامع وتتدلى على مراتبه الطرية، أما مخداته فمحلاة بالأقمشة الملونه، والمهم أن ارتفاعه لا يسمح للأطفال بتحقيق أمنية الصعود عليه لمشاركة الوالد والوالده الفراش.

لكن هناك بعض الأشياء مازالت فى متناول يد الراوى، كزجاجات العطر الخاصة بالوالدة التى كثيراً ما قام «بدلقها» فوق ملابسه، وكذلك أدوات الحلاقة الخاصة بالوالد حين حاول تقليد الوالد، فأستعمل الفرشاه لتغطية خديه بالصابون، ومر عليهما بماكينه الحلاقة، وكانت النتيجة مأساوية حين شعر بالألم، ونظر فى المرآه ليجد الدم يختلط بالصابون على خديه، فبكى فى صمت أولا، ثم تحول البكاء إلى صراخ، فأسرع الجميع لمعرفة ما حدث، وسلم الله بأن الأصابات كانت سطحية وتم علاجها بيسر دون أن تترك علامات جائرة بوجهه، وكان درساً لا ينسى فليس كل ما يفعله الكبار يصلح للصغار.



«ديلفري» بائعة البيض

توصيل الطلبات للمنازل ليس بدعة حديثة وإن اختلفت صوره الآن باستخدام الدراجة النارية وقائدها والمسمى «بالطيار» وكان يتم فى الماضى بواسطة إما البائع الجوال بعربته المتواضعة التى يجرها بنفسه إذا لم تسمح الظروف المادية بمعاونة حِمار له. وينادى على بضاعته بصوت جهورى يوقظ النائم بغير حاجة لمكبرات الصوت الذى يستعملها البعض حالياً أحياناً. وأخر يحمل بضاعته على كتفه أو رأسه ويتغنى بحلاوة بضاعته منافساً مطربى الأوبرا الإيطالية، ونماذج عديدة ممن إحترفوا الوصول للمستهلك ببضاعتهم سعياً للرزق، لافرق بين بائع اللبن الذى يوقظ النيام مبكراً، أو بائعة الخضر أو البيض، أو بائع فاكهة الموسم-، وسبحان موزع الأرزاق[*]-.

وكانت العلاقة تتحول أحياناً بين البائع والزبائن لعلاقة شخصية دائمة، فكل منها ينادى الأخر باسمه بل وقد يسأل أحياناً عن أولاده وأفراد الأسرة.

وذكريات الراوى مع هؤلاء كثيرة مازالت باقية بكلماتها وألحانها، وتصلح لأن تتحول لأوبريت غنائى «يربط الماضى بالحاضر، وهو أمر تنفرد به مصرنا الغالية الحبيبة، حيث تعجز الحداثة عن إلغاء القديم التقليدى من حياة المصريين إلانادراً وفى أحياء بعينها، وهذا النوع من الخدمات كان أساسياً وضرورياً لسكان «حارة بدر» ومن أقدم ومضات الذاكرة «بائعة البيض» تحمل مشنتها المجدولة من الخوص و المفروشة بقش الأرز، المملوءة بالبيض، والِحوَار المعتاد بينهما وبين «الست» للتأكد من أن البيض طازج (وردها بثقة بأن أى بيضه تالفة أو «بها البذرة» أى ملقحة تستبدل فى المرة القادمة بعشر بيضات) ومن كثرة ترددها على المنزل لإحضار البيض أصبحت صورتها

(*)وتلك النماذج مازالت باقية لم تتغير فى العديد من الأحياء وكأنها ترفض وتقاوم أساليب التوصيل الحديثة.

محفورة فى ذاكرته من سنواته الأولى، حين كان يقترب منها وهى تجلس أمام مدخل البيت وبجانبها «المشنة» فتبتسم له مداعبة، وتجلسه على ساقيها وتبدأ فى كسر بعض البيض وتطعمه له «نيئاً»، ومازال رنين صياح بل صراخ الوالدة عندما اكتشفت ما يحدث، وتهديدها بشده ودفاع بائعة البيض عن نفسها بأن ما فعلت مصدر قوة وصحة للطفل، والدخول فى حوار مع بائعة البيض دون طائل، ومنذ تلك الواقعة أصبح حظر تجول الأطفال يفرض بمجرد وصول بائعة البيض «الكريمة» المتخصصة فى تغذية الأطفال، حتى لا يتكرر ما حدث.

أما أسعار البيض، التى كانت ترتفع مع اقتراب عيد الربيع «شم النسيم» فيصل سعر البيضة لمليم كامل غير منقوص نتيجة لعادة تلوين البيض التى انتقلت للمصريين من الجاليات الأجنبية المقيمة بمصر لاقترانه بعيد الفصح عن المسيحيين كنوع من مظاهر الاحتفال به وإن كان البعض يرى أنها عادة مصرية قديمة قد تمتد لعصور الفراعنه واحتفالاتهم بالربيع أيضاً أو أنه منقول عن عيد النيروز وبلاد فارس القديمة دون دليل قاطع على صحة أى منها، وعموماً فانتقال التقاليد والعادات من مجتمع لأخر من طبيعة خلق الله والله أعلم.

وعن بائع اللبن الذى يستعمل دراجته الهوائية، والمثبت على جانبيها وعاءان كبيران من المعدن ومغلفان بقماش من الجوت «الخيش» المبلل بالمياة، ليوفر شيئاً من البرودة لحمولته الثمينة من اللبن الطازج، فعادة ما يسبق الجميع ويحضر مبكراً قبل ارتفاع حرارة الجو، فأصبح يضرب به المثل لكل من يستيقظ مبكراً «كبائع اللبن». وكان من عادة بائع اللبن اصطحاب أحد أولاده كمعاون له، يصعد للمنازل لتوصيل «الراتب» أى الكمية المعتادة يومياً، بينما يظل الوالد فى حراسة الدراجة وحمولتها، وفى حالة الرغبة فى تعديل كمية اللبن اللازمة لليوم التالى يخطر بذلك. كل ذلك يتم بصورة تلقائية وفى مواعيد محددة نادراً ما تتغير لظروف طارئة كوجود عدد من الضيوف.

وأهم ما يتذكره الراوى بتقدير وإحترام روح الثقة المتبادلة بل والود بين البائع والمشترى، توثق المعرفة بينه وبين الأسر، وكان يتعجب حين يسمع بعض

السكان وهم يسألون عن صحة أفراد أسرة البائع بالاسم، مما يدل على أن الصلة بينهم تتحول لما يمكن اعتباره قرابه أو صداقة وليست علاقة بائع ومشترى.

أما بائع الخضروات والفاكهة بعربته «الكارو» فمازالت من المشاهد المألوفة فى الكثير من الأحياء حتى الأن متحدياً ومنافساً لمحلات الخضروات والفاكهة. وكثيراً ما يتسأل الراوى عن سر بقاء هذه الفئة من الباعة، رغم مغريات المحلات الحديثة والسوبر ماركت، فينتهى تفكيره بأنه لسد حاجات الأخرين من السلع دائمة الاستعمال بشكل يومى التى تلزم الأسرة بكميات صغيرة، وقد لا تتوافر فى مكان قريب لربه المنزل، فيأتى دور البائع الجوال ويصبح المنْقذ من عناء الخروج لشرائها. ويكفي تدليه «السبت» بالحبل لتحصل على ما تريد.

وهكذا الإنسان فى حاجاته أو ما يسمى اقتصادياً «بالطلب» هو دائماً ما يحدد أسلوب «العرض». وإن كان إقتصادياً «العرض» هو الذى يخلق «الطلب»، فبدون إختراع وعرض كل جديد للمستهلك ما كان الطلب عليه.وهكذا رغم الحداثه والإختلافات العديدة نتيجة ثورة العلم، ما زالت بعض العادات والتقاليد متشبسة بأرضها فى تحد لكل ما هو جديد.



العمامة الخضراء والقيشاني الملون

إنشغل الطفل الذى لم يكمل أعوامه الأربعة بالحركة غير العادية بالحارة، ورجال يكسون الجدران بأقمشة سميكة مزركشة بألوان جميلة، وآخرون يقيمون أعمدة خشبية وأسلاكاً (لربط كلوبات الإضاءة). ثم حضور الكثير من الرجال بجلابيب بيضاء، وعلى أكتافهم وبطونهم أحزمة خضراءأوحمراء ويمسكون الدفوف وهم ينشدون ويتمايلون على إيقاع الدفوف، وهو يحاول إلتقاط بعض الكلمات مما يقولون فلم يقو على نطق أى منها سوى «الله الله» وكلمة «حى» فقام بتقليدهم فبدا كأنه يرقص فأثار الضحك فيمن حوله ـ والدته وشقيقتيه الأكبر زينب وفتحية ـ .

أخذه الحماس وأصر على النزول للحارة للمشاركة، ولما منعوه بدأ فى استخدام سلاحه الذى قلما يلجأ إليه وهو «البكاء». بعد تردد وافقت الأم «السيدة فائقة» أن تأخذه «ذكية» التى تساعدها فى رعايته وتذهب به للدور السفلى فى البيت الكبير، ولغرفة الجدة أم إبراهيم بالتحديد، حيث تكون الرؤية أفضل وأقرب، ويكون تحت أعين أفراد الأسرة.

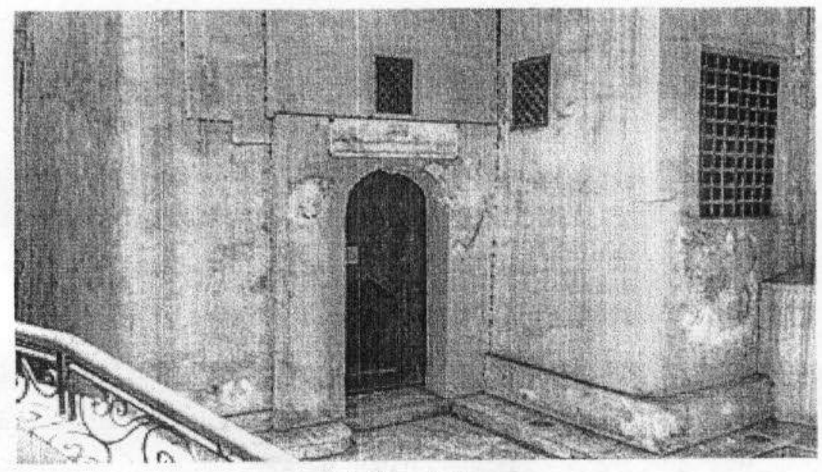
ووسط أصوات الطبول وأغانى المديح والذكر جاءت مجموعة كبيرة تحمل الأعلام، ورأى وسطها عمه الكبير «الحاج إبراهيم» على صهوة حصان أبيض فى لون شعر لحيته ويضع على رأسه عمامة خضراء كبيرة لم يره يرتديها من قبل، فكانت الصورة مبهرة حقاً لمن فى سنه، فبدأ فى التسلل فى هدوء دون تفكير ليصبح أقرب ما يكون لعمه، لعله يراه ويأخذه معه على صهوة الحصان.

وبدأ موكب المولد فى التحرك خارج الحارة للوصول لنقطة تجمع الطرق الصوفية، والمحدد لها «ميدان الموافى» (بالقرب من دار ابن لقمان الشهيرة) حيث أقيمت بالميدان خزانات مياه الشرب المرتفعة، والمسافة أسفلها تسمح بتجمعات كبيرةودون أن يشعر أحد بتسلل الطفل فى غفلة من ذكية والجدة والجميع رغم حرصهم الشديد والمعتاد، إختفى، ولم ينتبه أحد لغيابه إلا بعد عدة دقائق كانت

كافية لضياعة وسط الزحام. ورغم أن المسافة للميدان ليست بالقصيرة، إلا أنه لم يفكر ولو للحظة للعودة للمنزل، بل واصل السير وسط الجموع وعينه معظم الوقت على راكب الحصان بعمامته الخضراء، حتى وصل للميدان، فازداد الزحام كثيراً أضعافاً مضاعفة، وحتى العمامة الخضراء التى كان يتبعها تحولت لِعَمائمْ كثيرة، يصعب عليه تمييز عَمامة عَمّه من بينهما.

فى هذه اللحظة فقط أحس بالضياع وصعوبة معرفة طريق العودة وكاد يبكى. رغم عناده المعتاد - وبدأ يبحث عن مكان أكثر هدوءاً ليتمكن من الجلوس لإراحة ساقيه المنهكتين، وفجأه لمح جدار من القيشانى المزخرف من اللونين الأسود والأصفر على واجهة معرض أثاث، كان صاحبه محمود أبو ليله ابن عمته، وكان يأتى إليه أحياناً مع والده، وما كان ليميزه لولا القيشانى الملون الذى كان يشده بألوانه اللامعة فيتأمله لفترات طويلة دون غيرة، فجلس على أحد المقاعد أمام بوابة المحل دون تردد، ولم تمض دقائق إلا ووجد نفسه محاطاً بعدد غير قليل من شباب العائلة، والبعض يضحك والبعض يلومه لعدم الاستماع لكلام الكبار. ولم تكن هذه هى المرة الأخيرة التى ينقذه عشقه للألوان من مواقف صعبة.

وعاد للمنزل وهويتوجس خيفة من العقاب ، لكن الله سلم ببركة ما ردده أمام الأسرة من كلمات وأدعية مما حفظها من أفراد الموكب.



دار ابن لقمان

عفاريت ورشة مُردَخ

كان دائم المحاولة لنطق اسم عمه الكبير الحاج إبراهيم بدر. فالبعض يناديه بالحاج بدر، والبعض «بشيخنا»، وآخرون «بالباشمهندس»، ومجموعة ينادونه «بالريّس» وكان يرتدى أنواعاً متعددة من الثياب، فيراه بالجلباب وعمامه صغيرة بالمنزل، وأحياناً بشكل مختلف من الجلاليب مع عباءة كبيرة وسط مجموعة لتلاوة القرآن والإنشاد الدينى، الذى كان الراوى يستمتع بإيقاعة، وإن كانت بعض الأصوات لا تعجبه، ثم يفاجأ مرة أخرى بالعم إبراهيم يرتدى البدله مثل والده، وإختلاف صورة عمه فى عقله الصغير وإدراكه المحدود صعّب عليه أن يراه شخصاً واحداً بكل هذه الأشكال والأسماء، فاختصرهم فى براءة بوصفة أو مناداته «بعمّو هيم».

ورغم عدم السماح للأطفال بالجلوس فى مجلس الكبار، كان ما يتصف به من هدوء ورغبة فى المعرفة يشفع له بالجلوس وسطهم، ليستمع بشغف لحكايات الحضور، وخاصة «عمو هيم» عمّا يصادفه فى عمله وعلاقاته خارج نطاق الأسرة، وخاصة بصفتة المهندس المشرف على «ورشة مُرْدُخْ»، التى كانت تحتوى على معدات وألآت ومخارط تسمح بصناعة بعض المنتجات الصناعية المعدنية، كالسواقى لرفع المياة بالحقول، والأبواب الحديدية، والأسوار، والخزانات للأغراض المختلفة. بل وتطور إنتاجها بفضل خبرة ومهارة «عمّو هيم» لتجميع غرف التبريد للتخزين، ويتذكر دائماً ما سمعه عن حادث عند تجربة غرفة تبريد، ولا يتذكر أين كان ذلك، وإن كان من المرجح أنها كانت بميناء الإسكندرية.

حيث دخل «عمو هيم» غرفة التبريد وحده لفحص شيئ ما دون أن يراه أحد من العمال، أو المعاونيين، فأُغلق الباب تلقائياً وهو بالداخل وتعذر عليه فتحه، ومرت الدقائق طويلة وكثيرة وهو ينادى وما من مجيب فكاد أن يتجمد، لولا يقظة أحد العمال ففتح الباب وأسرع بإخراجه فى حالة سيئة، وقبل التفكير

فى تدفئة نفسه طلب من أحد مُسَاعِديه أن يحضر فوراً أسلاك وجرس إنذار يركب بالداخل وذلك قبل إعداد شراب ساخن له!! «فالتعلم من الأخطاء وعلاجها فوراً من صفات الكبار حقاً».

كانت مثل هذه الحكايات تنبه عقله الصغير لمسائل أكبر من إدراكه، ومع ذلك يبدوا أنها حُفرت فى ذاكرته بشكل ما، لا يعلمه إلا الله، وقد استوعبها فيما بعد، وأدرك أن التعلم من الأخطاء ومحاولة علاجها، والاستفادة منها أمر ضرورى.

ومن حكايات «عمو هيم» الطريفة عن فترة عمله بورشه مُرْدُخْ مارواه عن إصرار الحارس الليلى الغفير إسماعيل ضخم الجثة - أن الورشة «مسكونة»، وتظهر بها العفاريت ليلاً وتلمع أعينها الحمراء وسط الظلام الدامس فوق المهمات، وداخل المواسير الضخمة، وتختفى عند قراءته «أيه الكرسى» بصوت مرتفع ثم تعود للظهور مرة أخرى.

فالتقط الطفل «الحشرى» كلمة «عفريت» وبدأ يكررها وهو يقفز ويضحك، ولكن دون أن يشغله ذلك عن سماع باقى الحكاية، وكيف أن عمه ذهب ليلاً للورشة لصيد العفاريت وكان يعرف أن العيون الحمراء لم تكن سوى أعين مجموعة من الأرانب البرية التى حفرت لها أنفاقاً فى الورشة «المسكونه» وتخرج ليلاً لتتغذى على الحشائش، فأعدّلها مصائد كبيرة، يضع داخلها البرسيم وإصطاد عدداً منها، وسلالتها ما زالت تربى فوق سطح المنزل الكبير، داخل أقفاص مرتفعة عن الأرض بطريقة هندسية، تسمح بتعليق البرسيم والأطعمة الرطبة الأخرى، حتى لا تتلوث تحت أقدام الأرانب، وتضمن التهوية السليمة، وتغير المياة بطريقة أمنه، وكل ذلك تصميم وتنفيذ «عمو هيم». ولم ينتبه الطفل الحشرى أن نصيبه كان عفريتاً صغيراً منذ عامين تحمله ذكية معظم الوقت داخل قفص وكان يداعبه ويناديه «كلب».

وربما كانت مثل هذه الأحاديث الفكاهية عن العفاريت هى سبب أنه نشأ لا يخشى ما يسمعه عن العفاريت وما شابهها، ولا يصدق الخرافات، وحبه للحيوانات والطيور بصفة عامة وخاصة الكلاب.... ربما!!.



مخترعون ولكن

هناك شِبْه ظاهرة متكررة قديمة حديثة فى محيطنا الأقليمى، وهى أن معظم المفكرين والعلماء والمخترعين والمبدعين ماتوا فقراء، وكثيراً ما أتساءل، هل ذلك من قصور فى أنظمتنا وقوانيننا وتقديرنا لهم بصفة عامه، أم ذلك لصفات خاصة فى معظم هؤلاء، كالزهد وعدم الاهتمام بزخرف الدنيا، نتيجة تركيز فكرهم فى إنتاجهم الفكرى، وإبداعاتهم فى مجالات تخصصهم؟

دعانى لهذا التساؤل ما حدث للعم إبراهيم بدر بعد اختراعه وإنتاجه لمعصرة كهربائية للزيوت، وخاصة «السيرج»، أى زيت السمسم، حيث كان يصيبه الغثيان حين يرى الطريقة البدائية لعصره سحقاً بأقدام الرجال داخل حوض كبير، لتحويله إلى زيت وطحينه لطعام البشر. وكان ابتكاره موضع ثناء وتقدير من الدولة، «والسلطة البريطانية المستعمرة»، ومنح براءه الاختراع فى حفل متواضع، حضره الممثل البريطانى، وعدد من الشخصيات الرسمية، وتم تصويره فوتوغرافيا، وكان يحتفظ بصورة الاحتفال بالبيت الكبير، ليراها الأبناء والأحفاد، ومنهم صاحبنا الحشرى الصغير، الذى كان يهتم بما حدث للاختراع بعد ذلك، فسمع حكايات عن تصنيع«عمو هيم»لعدد وباع القليل، ثم فوجئ بإنتاج أخرين لعدد كبير منها فى كافة المديريات المنتجة للسمسم، ومنافسته فى تسويقها بأسعار أقل، لإنتاجها بمواصفات أقل فى ورش صغيرة، ويبدوا أن صناعة «تحت السلم» ليست بالأمر الجديد فعّرضه ذلك لخسائر كبيرة وقرر إغلاق مصنعه المتواضع، والذى كان ينتج لوازم صناعية أخرى بارت تجارتها أيضاً، كالسواقى التى تدار بالماشية. ورغم المساحة الكبيرة نسبياً للمصنع بطريق هام على أطراف المدينة وهو «سكة سندوب».وقبل إغلاق المصنع فكر العم فى مشروع آخر.

فجاءته فكرة تصميم خط إنتاج للبن المطحون حيث زاد الطلب عليه

لأنتشار عادة شرب القهوة بين العامة والخاصة ـ وكانت الفكرة تركز على إمكانية تنويع المنتج طبقاً لرغبات المستهلكين، من حيث درجة نعومة طحن البن، أو درجة «تحميصه » ليصبح غامقاً أو فاتحاً أو وسط»، فبدأ فى تنفيذ خط إنتاج وتصميم وصناعة آلاته.دون الاعتماد على آلات الطحن المستوردة،وأتمها بصورة مبهرة كانت حديث مدينة المنصورة، فخط الإنتاج يقوم بطحن البن بعد تحميصه بالدرجة المطلوبة،ويمر بعد ذلك على مجرى متحرك يصب «بمناخل» يخرج أسفلها البن بدرجات مختلفة من النعومة والمذاق، ويتم فصل كل نوع يدويًا فى أوعية مختلفة، ثم يُعبأ فى أكياس ورقية خاصة بعدة أوزان، والأكياس عليها صورة تمثال نهضة مصر « الذى صممه ونفذه المثال الرائع مختار بتمويل شعبى خالص» ، ومكتوب أسفل صورة التمثال «بن النهضة»-.

ومما يدعو للدهشة أن هذه الخطوات المتعددة للإنتاج أُنجزت فى مساحة محدودة لاتتجاوز ثمانية أمتار طولاً، وسته عرضاً، مع مساحة أصغر لمكان العرض والبيع. وكان الراوى يَسْعد كثيراً بالمشاركة فى البيع والوزن بدقة من أول مرة دون زيادة أو نقصان، ويسعد بتعليقات أبناء عمه مصطفى وسعد المشجعة.

هكذا كان كفاح جيل من الجدود والأباء فى زمن الاستعمار العسكرى القديم، فلم يكتفوا بالمظاهرات والهتافات، بل كافحوا أيضاً بالعمل، ومقاطعة المنتجات البريطانية، وإعتماد كل فرد على النفس دون انتظار الدولة لتدبير المأكل والمسكن. بل كان الفلاح يعتبر شراء الخبز والطيور من السوق دليل«الخيبة».

حكاية العم إبراهيم قد تبدوا كمقال، أو تحقيق صحفى أكثر منها قصة، وأجدها حكاية نموذج خّلاق ومبدع تجده فى جينات المصرى على مر السنين، ولا يحتاج إلا لشيئ قليل من الدعم والتوجية فيزول ما علق به من ران ويعود لتألقه. حتى هؤلاء الذين تحولوا لما ندعوهم «بحزب الكنبة» إن كانوا صغاراً أو كباراً، فلابد أن تجد بينهم الكثير من المفكرين والمبدعين، حتى وإن طال بهم العمر، فعم إبراهيم وهو فى سن التقاعد أعد لنفسه «كنبه» داخل برجوله جميلة على سطح مسكنه الجديد فى امتداد شارع «أبو الدُبّل»

المتقاطع مع شارع الخلا، المتفرع من شارع «العباسى»، حيث تقع مطحنه ومحل النهضة لإنتاج البن - وهكذا كانت أسماء الشوارع لا تخلوا من الغرابة والطرافه-.

ومن المستغرب أو الأمر الذى لا يصدق، ما وضعه أمام الكنبة للتسلية وملء وقت الفراغ فى زمن الشيخوخة ،«وضع مخرطة كهربائية لخراطة المعادن»!! لعمل الأشكال الدقيقة والجميلة، كولاّعات توضع فى الصالونات لاستعمال الضيوف، مع أطقم الطفايات لإهدائها للأقارب والأصدقاء، وكذلك أطباق الزينة من النحاس الأصفر بتصميمات وأشكال متعددة.

وعندما علم بنقص بعض قطع الغيار المهمة بالأسواق (بسبب الحرب العالمية الثانية) وصعوبة الأستيراد فأدت لتوقف الماكينات فى الورش والمصانع الصغيرة، قام بإنتاج عدد من التروس بمقاساتها الدقيقة، وعدد من «الفونيات» لماكينات التى تعمل بالديزل والسولار، وقام بإهدائها لأصدقائه وتلاميذه ممن لم تصل مهارتهم لمثل هذا الانتاج.

رحم الله «عمو هيم» فصورته محفورة فى الذاكرة، ولا تغيب عن عقل الولد الحشرى بعد أن بلغ من العمر«عتياً »، فهو ما زال يتذكره، ويراه جالساً بجلبابه وعمامته البيضاء، ونظارته الطبية الرشيقة، وذقنه البيضاء التى تنافس بياض جلبابه، ويتعجب كيف لا تتسخ رغم عمله على المخرطة، والشرارات تتطاير أمامه.كل ذلك ما زال فى الذاكرة رغم أن الولد «الحشرى» أصبح شيخاً مسناًلا يتذكر مواعيد تناول «الأدوية».!!



وفاء بلا حدود

عودة للحَارة مرة أخرى وَدعُونا نطلق عليها هذه المرة ـ حارة أبو سليمان بدلاً من حارة بدر، فالحديث من شريط الذكريات الآن عن رب عائلة «أبو سليمان». وكانت العائلة المذكورة تشغل منزلين من منازل الحارة فى نهايتها من الداخل. واحد منها هو بلا شك من أقدم بيوتها، كما يتضح من طرازه، وعوامل الزمن البادية عليه، ويلتصق به المنزل الثانى، وهو من أحدث منازل الحارة إن لم يكن أحدثها، ويتصل بالمنزل القديم بممر مظلم، تنزل إليه بدرجتين، لتسير فى ظلام لمسافة عدة أمتار، حتى يتسلل إليك ضوء خافت من نافذة درج المنزل القديم الحجرى. وكان صاحبنا «الطفل الحشرى» يتحدى نفسه وبعض أطفال العائلة أحياناً بالمرور منه، وصعود درج البيت القديم، ثم العودة لإثبات جسارته أمامهم، أو لكسر الشعور بالخوف داخله.

كان الحاج «السعيد أبو سليمان» زوج «العمة هانم بدر» أم عبده السعيد والدكتور لبيب، والدكتور أحمد،والسيدة/ عائشة السعيد والصحفية جمال السعيد ـ باعتبار ما سيكون كان ـ واحداً من تجار الغلال المعروفين، والوكالة والمخازن ليست بعيدة عن الحارة فكان «الحشرى» ينتظر عودة الحاج ليرى العربة الحنطور والحصان، والأهم منهما الكلب الشبيه بكلاب الصيد الإنجليزية بشعره القصير الأملس الناعم، والذى لايفارق الحاج فى ذهابه وإيابه كحارس أمين، وعينه على شكارة الأموال تحت قدمى الحاج. وينظر بحِدّة لكل غريب ـ دون نباح وكأنه يقول له إحذر فأنا هنا.

ومما يدعو للتساؤل أن الأسرة رغم تَديّن جميع أفرادها، وربما بصورة أكثر وضوحاً من باقى سكان الحارة من العائلة الكبيرة ـ قبلوا بوجود هذا الحيوان الأليف بينهم بحب وعطف شديدين، ربما لذكائه الخارق، وإستجابته لأوامر أى منهم بمجرد الكلام، أما الحاج فكان «صبيح» يفهمه بالإشارة ويعلم حدوده جيداً، فلا يصعد للدور العلوى أبداً، ويعلم الأماكن

المسموح له دخولها، والأماكن المحرمة، وكانت إقامته بالمنزل القديم. ويقوم بواجب الحراسة على أكمل وجه، دون نباح إلا فى حالات نادرة إما للتنبيه، أو اللعب، وخاصة مع صديقه «الحشرى»، ومن الجدير بالذكر أن عائلة «أبو سليمان» رغم احتفاظها بشجرة عائلات الحارة، التى تثبت أن الأصل هو عائلة بدر، ويمتد إلى- الإمام الشهيد/ الحسين زينة شباب الجنة-، لَمْ يتقبلوا إعتراض الحاج إبراهيم وبعض أفراد العائلة على إحتفاظهم بكلب بالمنزل. بل أطلقوا عليه اسم «صبيح» تيمناً بأسم «صبيحة» كلبة الرعى التى كانت تصاحب الرسول «صلى الله علية وسلم» فى صباه فترة رعيّه للغنم. كما رُوى فى كتبِ السيرة.

وأحب الأوقات «للولد الحشرى» لزيارة منزل «أبو سليمان» والعمة أم عبده السعيد، وقت القيلولة بعد الغذاء، حيث يخلد مَنْ بالمنزل للراحة، فيتفرد هو «بصبيح» صديقه الودود فيحتضنه ويلاعبه بسعادة غامرة، وأكثر ما أفتقده «الحشرى» كان صبيح عندما قرر والدة الأستاذ أحمد بدر الانتقال بالأسرة من الحارة إلى منزل جديد أكبر فى أحد الأحياء الجديدة نسبياً وهى منطقة «البحر الصغير». وكان يحن دائماً للحظات اللعب مع «صبيح»، ومرت أعوام قليلة كان لا يتوقف فيها عن مصاحبة والده لزيارة عمّاته بالحارة، حتى بعد وفاة الجدة «زينب الكبرى»، وكان يحرص كل الحرص على لقاء «صبيح» الذى يستقبله بشوق واضح - رغم ظهور علامات الكبر عليه - فكان يصدر أصواتاً خافته أقرب ما تكون للبكاء، وربما العتاب لتباعد مرّات الزيارة.

وفى الصباح الباكر من يوم صيفى حار. وصلنا بالمنزل الجديد خبر مؤلم بوفاة الحاج السعيد أبو سليمان، فأسرع الوالد والوالدة بالذهاب للحارة، ولم يسمحوا لأحد من الأولاد الذهاب معهم، وفى اليوم الثالث للعزاء أصر «الحشرى» أن يذهب لتعزية عمته ،وأبناء عمته، بإعتباره أصبح رجلاً ولا يجوز أن يتخلف عن هذا الواجب.

وذهب وكان اللقاء الحزين الدامع، ولم يتمالك نفسه من البكاء عند لقائه «بصبيح» ولم يصدق ما رأه - فقد رأى الدموع فعلاً فى عينيه - ورأه هزيلاً حزيناً، وعلم من أفراد الأسرة أنه تتبع النعش حتى المقابر، وبزلوا جهداً كبيراً لإعادته للمنزل. ومنذ وفاة سيدّة « الحاج السعيد رحمة الله» لم يغير مكانه

على أقرب درجات السلم لغرفة نوم الحاج، فى إنتظار خروجه وفشلت كل المحاولات لإطعامه. فاقترحوا على صديقة الصغير محاولة إطعامه، ففشلت المحاولة أيضاً، ولم يمض يوم آخر إلا وقد لحق بسيده حزناً، وأصبح يضرب به المثل بين الأسرة والحى بالوفاء الفطرى. وسبحان الله مؤلف القلوب.



قامات منسية حكاية «المصحف المرتل»

لا يجوز أن يُذكر إسم «عائلة أبو سليمان» بالمنصورة، دون أن نتذكر نابغة الأسرة الأهم «الدكتور لبيب السعيد»(*) «رحمه الله رحمة واسعة» وأثابه على جهده المشكور لتحويل فكرته وحلمه فى تسجيل القرآن الكريم صوتياً مرتلاً فيكون متاحاً للملايين، يستمعون له مذاعاً عبر الأثير وفى بيوتهم مسجلاً على أشرطة مجوداً فينأى بالقارئ عما قد يقع فيه من لحن أو خطأ.مع إتباع ما هو مستحب كسنة عن «الرسول الخاتم» بأن «يرتل القرآن ترتيلا» كما أمرنا الله ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ مجوداً دون مبالغة فى التلحين «وإستعراض القدرات الصوتية» للقارئ وسط تهليل وإستحسان المستمعين له بصورة لا تليق بمقام المكان وما يقرأ. ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

وما تقدم هو بعض ما سمعه الراوى فى بعض الجلسات العائلية، فى شبابه حيث كان الدكتور لبيب السعيد يعرض فكرته عن المصحف المرتل على «خاله» الأستاذ أحمد بدر – والد الراوى – فينال كل التشجيع والحماس للفكرة وكان ذلك فى بداية العقد الخامس من القرن العشرين بدأ مشوار الدكتور لبيب– بإصرار العلماء الحريصين على دينهم – وخاصة بعد عام ١٩٥٦م حينما لوحظ أن الصهاينة يقومون بطبع ونشر مصحف «مزور» بأفريقيا، وتصدى لهم «الأزهر الشريف»، مما زاد من الإحساس بأهمية فكرة الدكتور لبيب، لما هو معلوم من أن حفظ القرآن لا يكفى أن يتم بقراءة المتلقى له منفرداً، بل من الضرورى أن يتلقاه مسموعاً من أحد الحفظة الملمين بقواعد تجويده ومواضع الوقف وما إلى ذلك.

تقدم الدكتور لبيب بفكرته وإقتراحه مكتوباً «للجنّة للحفاظ على القرآن

(*)ولد فى ٨/ ١٢/ ١٩١٤م الموافق ٢٠ محرم ١٣٣٣هـ. توفى فى ٢٢/ ١/ ١٩٨٨م الموافق ٢ جمادى الثانى ١٤٠٨هـ.

الكريم» وذلك فى شهر شعبان لعام ١٣٨٣هـ كإقتراح مفصل كان فى حد ذاته دراسة علمية متكاملة للمشروع وليكون بمثابة رابط بين المسلمين بجموع الأمصار وعبر البحار.

ولم يكن الحصول على الموافقة على المشروع بالأمر الهيّن، فلم يخلو الأمر من معارضة من أعداء النجاح والمغرضين والمستفيدين خشية أن يكون منافساً للقراء الذين إعتادوا على قراءته مُلحناً لإطراب المستمعين، وحتى تسميه المشروع كانت موضع حوارات وإختلاف فى الرأى، فهل تسمية «القرآن المسموع» أو «المصحف المسموع»؟ وكلا التسميتين لم تحظى بموافقة شيخ الأزهر «فضيلة الشيخ شلتوت»، بإعتبار أن كلمة «المسموع» فى اللغة العربية قد تعنى «المشهور». كما رفضت تسميته «بالقرآن المرتل» حتى لا يقال مثلاً قرآن فلان قد فقد أو تلف» فى حين أن المقصود هو الشريط المسجل. وإنتهى الأمر بالموافقة على التسمية المقترحة أصلاً من الدكتور لبيب – صاحب الفكرة – وهى «المصحف المرتل».

ثم ظهرت عقبة الإمكانيات المالية للتنفيذ، والتى تتجاوز إمكانيات صاحب الفكرة، فلجأ إلى وزارة الأوقاف، فوافقت على تمويله، كما وافقت الإذاعة المصرية على تسجيله«باستوديوهاتها»، فى مقابل إذاعته بمحطاتها الإذاعية حين تشاء – وكان هذا ما يتمناه الدكتور لبيب – لنشر أسلوب القراءة المرتلة بين جموع المسلمين.

وبدأ التسجيل بصوت فضيلة الشيخ «محمود خليل الحصرى» «برواية حفص». وبعد الأنتهاء من تسجيله – الذى خضع لمراجعة دقيقة وإعادة تسجيل بعض الأيات بدأ توزيعه فى ٢٣ يوليو ١٩٦١م.

لم يكن الدكتور لبيب من طّلاب الشهرة وكان يتجنب المديح من المواطنين حتى لا يكون ذلك «خصما من ثواب الأخرة»، فكان كثيراً ما يعتذر عن الظهور إعلامياً. أو يذكر لأحد أنه هو صاحب فكرة «المصحف المرتل» والمشرف على تنفيذها[*].

(*) أمر الزعيم جمال عبد الناصر بمكافأة قدرهاألف جنيه للدكتور لبيب تنازل عنها وعن جائزة أخرى لصندوق المشروع.

لم يُرضى ذلك صديقة الصدوق الدكتور«حسن السعاتى» عميد كلية الأداب لجامعة عين شمس، فطالبه بإصرار أن يصدر كتاباً يكون مرجعا علمياً للمشروع متكاملاً، بالقراءات المتواترة للقرآن الكريم، وذلك لمعرفته بمدى غزارة وعمق علم الدكتور لبيب وفكره «الموسوعى»، وظهر ذلك فى برامجه ومحاضراته «بإذاعة الرياض» فى السبعينات من القرن العشرين.

إستجاب الدكتور لبيب لنصيحة صديقه، فصدر له كتاب قيم أثرى المكتبة الدينية وهو «المجمع الصوتى للقرآن» والذى يعتبر أحد أهم المراجع عن القراءات المتواترة ونقد وتفنيد للشاذة ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور لبيب لم يحظى بشرف الإنتماء لعلماء الأزهر، فلم يكن أحد خريجيه – بل كانت دراسته فى علم الأجتماع الأنسانى بالإضافة إلى دراسات حرة عديدة ولذلك صدر له العديد من المؤلفات العامة فى أمور دينية وإجتماعية منها:

المقارئ والقراء.

الأذان والمؤذنون.

التغنى بالقرآن.

العلاقات العمالية.

الدفاع عن القراءات المتواترة.

الشيوعية فى ميزان الأسلام.

ومن يرغب فى معرفة المزيد عن قدر وقامة الدكتور لبيب السعيد، عليه الرجوع لمؤلفاته كما يمكنه الأطلاع وسماع محاضرة عنه للدكتور/ محمد إسماعيل المقدم – من علماء السلفية – وهى مسجلة على (اليوتيوب) وسيجد فيها المزيد من المعلومات التى لم تتسع لها صفحات «الحكاية».

رحم الله الدكتور لبيب رحمة واسعة وجزاه عنا خير الجزاء هو ورفيقه الشيخ محمود خليل الحصرى أول من سجل بصوته المصحف المرتل، وقد سمع الراوى من الدكتور لبيب الكثير من المديح عن خلق وورع وكرم الشيخ الحصرى وحرصه على عمل الخير بما يفوق ما قد يحصل عليه من أجر دنيوى، وعما قاله للراوى أن الشيخ الحصرى كان ما ينفقه من صدقات كان كفيلاً بتحويل المتلقى من مستوى إلى مستوى أفضل.

رحمهما الله رحمة واسعة (فقد كانا نموذجاً للإيثار ونكران الذات) ولا يجد الراوى ما يقول لهما سوى مقولة رسولنا الخاتم محمد إبن عبد الله عليه الصلاة والسلام «ربح البيع».



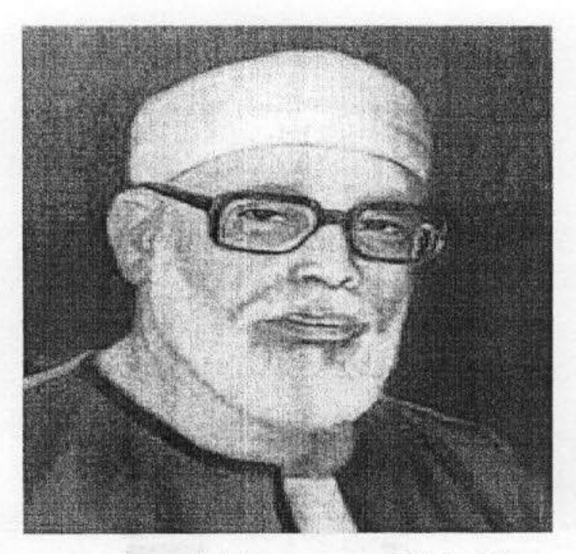
٤٤ ألف اسطوانة من المصحف المرتل

فى اليونسكو والكونجرس الأمريكى وكل عواصم العالم

من هو لبيب السعيد الذى رفض ١٠٠٠ جنيه مكافأة عن فكرته ومجهوده فى هذا المشروع ؟

قصـــه المصحف المرتل الذى يتجاوب صداه فى كل آفاق العالم الآن قصة مضيئة مشرقة بطلها رجل متواضع زاهد فى الشهرة بعيد عن الأضواء لم يحفل به أحد من هؤلاء الذين تحدثوا عن هذا المشروع الخطير فى الصحف والمنتديات ..

* هو لبيب السعيد المراقب العام لمصلحة الاستيراد والأستاذ المنتدب بجامعة عين شمس ودون مقدمات ندخل الى القصة من أولها ..



القارئ الشيخ محمود خليل الحصرى

انفراط العقد

الأسرة الثالثة التى ترتبط بعائلة بدر بصلة النسب، حيث إقترنت إثنتان من بنات «زينب الكبرى» باثنين من عائلة أبو ليلة، وهما المعروفتان فيما بعد بالحاجة أم محمود أبو ليلة، والحاجة أم عبد العليم أبو ليلة، وبذلك أصبحت الأسرة الأكثر عدداً بالحارة وربما إمتدت لحارة أخرى قريبة بجوار مقام «سيدى ياسين» بنفس الحى، أقامت بها العمة أم عبد العليم جده« اللواء مصطفى أبو ليلة»،أحد كبار ضباط الأمن المعروفين بالشرطة وهو فى سن التقاعد حالياً.

كان يعمل معظم أفراد أسرة أم محمود بصناعة وتجارة الأثاث، تحت إشراف الإبن الأكبر محمود الذى أجاد المهنة، وكان له تصميماته الخاصة من الأثاث تتناسب مع الظروف الإقتصادية، وخاصة فى زمن الحرب العالمية الثانية، وارتفاع تكلفة التصميمات الكلاسيكية ذات الطابع الفرنسى، التى تحتاج فى صناعتها للأخشاب المستوردة،ولكثير من الجهد والوقت والتكلفة، كما تحتاج لمساحات كبيرة بالمنازل، وهو أمر لم يعد متاحاً إلا للعائلات الميسورة لندرة الأخشاب ، وكذلك توقف إنتاج الأثاث المعدنى، كالأسرة ذات الأعمدة النحاسية اللامعة، أو الحديدية والمطلية باللون الأبيض أو الأسود مع حليات نحاسية وتسمح بتركيب ناموسية، وتطورت الموديلات والأذواق مع مرور الزمن.

وظهرت موهبة محمود أبو ليلة فى ابتكار أشكال مقبولة، لا تبتعد كثيراً عن الأشكال التى تفضلها الأسرة فوق المتوسطة اجتماعياً. فكان ينتجها فى ورشته بشارع «السكة القديمة» المجهزة بعدد من المناشير والمعدات الألية، ومجموعة من النجارين ذوى الخبرة الممتازة، وكان يعتمد على شقيقة«عبد الودود»، وبعض معاونيه فى أعمال الدهانات «الأسطر»، واشتهر بإن الأثاث يخرج من تحت يديه متقناًوبه بريق لا يقدره كل فاهم لهذه الصنعة اليدوية

الفنية.

أما الشقيق الأصغر «محمد أبو ليلة» صاحب الجاذبية الخاصة، والجسم الرياضى، فكان يقوم بمهمة التسويق والبيع، بمعرض الأثاث الذى أقامته الأسرة بميدان الموافى، فى نهاية شارع «السكة الجديدة» بواجهته الجميلة«المغطاه بالقيشانى الملون باللونين الأصفر والأسود»، والعالقة فى ذاكرة صاحبنا منذ الطفولة المبكرة.

وبرغم ظروف الحرب كانت التجارة مرضية لحد ما، ثم ظهرت فئة جديدة من الأثرياء سُمّيت «بأثرياء الحرب» بدأت المتاجرة فى أى شئ وكل شئ، وظهرت السوق السوداء، والمضاربات غير الشريفة، فانقلب الحال، وأصبح البقاء للأكثر قدرة على استغلال ظروف الحرب، أو للأغنى وليس للأصلح.

وتوفيت زينب الكبرى، ثم ابنتها أم محمود، وتلاها محمود، وسافر عبد الودود لينشئ ورشته الخاصة الجديدة - بالسكة الجديدة أيضاً - ولكن بمدينة الأسكندرية، وتزوج من فاتنة سمراء إسكندرانية، وظهر فرع جديد لعائلة «أبو ليلة»وبدأت تنقطع صلتهم وباقى أفراد الأسرة تدريجياً.

أما ثانى أولاد أم محمود والذى لم يكن له صله بصناعة الأثاث، وكان أكثرهم تعلماً هو «أحمد أبو ليلة»- وكان يلازم خاله - الأستاذ أحمد بدر كظله وسار على هدية (*)- فى معاونته لإقامة المدارس الحرة المصرية الخاصة لسد بعض الفراغ الذى نتج عن قلة المدارس «الأميرية» الحكومية.

ومن الضرورى أن نتوقف للحظات لتوضيح ما كان عليه الحال فى هذه المرحلة التاريخية فى مجال التعليم، حيث كانت المدارس الخاصة معظمها مدارس الراهبات الأجنبية، كان لها فضل لا يمكن إنكاره فى نشر التعليم،وخاصة اللغات الأجنبية للأولاد والبنات، ولكن فى أغلب الأحيان كانت خدماتها تقدم لأبناء وبنات الطبقة الأرستقراطية والميسورة، ولم تكن قادرة فى مجملها على تدريس اللغة العربية، أو التاريخ الإسلامى بالمستوى المطلوب.فى حين كان التعليم فى القرى مازال يعتمد فى معظمها على «الكُتّاب»، ولا يمكن أن نقلل من تأثيره أيضاً من الدفع بالعديد من التلاميذ

(*) أوصى أن يدفن جوار خاله، وقت نفذت وصيته.

بإستكمال تعليمهم فى المدارس الحكومية «بالبندر»، أى المدن أو القرى الكبرى، أو الأزهر الشريف. ويكفى أن «الكتّاب» أهدى لمصر قامات أدبية وتعليمية كالدكتور طه حسين، والعديد مما لايسمح مجال الحكايات القصيرة لحصر إنجازاتهم، ومع ذلك فقد كان فارق الإمكانيات المادية والعلمية كبيرا بين هذا الجهد المتواضع وما توافر للمدارس الأجنبية للأرساليات الدينية، وكان ذلك يثير الغيرة بين الشعب وظهر هذا واضحاً فى جيل عام ١٩١٩ مما دفع بعض القادرين للتفكير فى تأسيس المدارس المصرية الخالصةبإمكانيات متواضعة بالمدن، مستعينة ببعض الدعم والمتابعة من وزارة المعارف، فملأت بعض الفراغ، وساهمت بجهد مشكور فى النهضة التعليمية، مع الأهتمام بتدريس اللغة العربية والتاريخ، والعلوم الحديثة، واللغات خاصة الأنجليزية والفرنسية أيضاً.

ونعود مرة أخرى لسكان الحارة، ونتذكر ما حدث بها بعد وفاة زينب الكبرى،وأم محمود وانتقال ابنها الأكبر الحاج إبراهيم بدر لمنطقة ليست بالبعيدة، «بشارع الخلاء» المتفرع من «شارع العباسى»، ويعتبر من الشوارع الرئيسية بالمنصورة.

كما انتقل شقيقة الأستاذ/ أحمد بدر إلى الحى الجديد بمنطقة «البحر الصغير» لتأسيس مدارسه هناك، ووفاة الحاج السعيد أبو سليمان، ثم زوجته أم عبده السعيد، وسفر الأبناء للقاهرة للألتحاق بالجامعة، والعمل هناك فيما بعد كأساتذه بالجامعات المصرية والعربية، أما الصغرى «جمال» فعملت لفترة قصيرة بالصحافة، ثم انتقلت إلى جوار ربها فى «عز الشباب»،والشقيقة الكبرى «عائشة »تزوجت وأقامت بمدينة الأسكندرية وأنجبت ثلاثه من الذكور هم د. سعيد الحداد «جراح»، وعصام مهندس، وعلاء مقاول بناء، ومن الإناث هدى، وإلهام، وسهام.

وانفرط العقد ـ ولم يتبق بالحارة إلا بعض الجيل الثالث والرابع.وبدأت إقامة الأسوار بين الأسطح لفصل كل منزل عن الأخر بدعوى توفير الإستقلالية، وسبحان مغيّر الطباع والنفوس، بتغيّر الزمان، وإختلف حال المكان، فبقاء الحال من المحال.



الهاويس

فى ثلاثينات القرن العشرين امتدت مساحة مدينة المنصورة على استيحاء لإحاطتها من جميع الاتجاهات بأراض زراعية من أخصب أراضى القطر المصرى، اشتهرت بزراعة القطن والأرز، كما كان يفصلها عن امتداها الشرقى رياح أو ترعة «البحر الصغير»، كما أسماه أهالى المنصورة، وهو ريَاح رئيسى يمر بعدد كبير من قرى ومراكز المديرية قبل وصوله لفرع دمياط وأخرها مركز «أجا» قبل التقائه بفرع دمياط للنيل مروراً بمدينة المنصورة، وفى نقطة الالتقاء أقيم «الهاويس» لضبط منسوب المياة بينهما ببوابات فى الاتجاهين، تفصل بينهما مسافة تسمح بتواجد مركب أو أكثر من المراكب التى كان يعتمد عليها لحد كبير فى النقل النهرى بين المديريات «المحافظات» فلم يكن النقل النهرى قاصراً على المجرى الرئيسى للنيل فقط كما هو الحال الآن.

وكان يعلوا «الهاويس» كوبرى معدنى رشيق لمرور العربات والمشاة يتكون من قسمين، يتم فتحهما من المنتصف بالرفع بجنازير ضخمة ليسمح بمرور المراكب.

ونقل هذه الصورة أراه ضرورياً لإيضاح كيف كانت تعالج مشاكل التقاطعات البرية أو النهرية بحلول عملية بسيطة، حتى لا تكون عقبة فى طريق مسيرة التوسع والتنمية، أما تسمية «الهاويس» فمن المرجح أنها ارتبطت بصوت تدفق الماء بين البوابات على هيئة شلال صغير، فيحدث صوتاً هادراً يراه العمال القائمون على إدارته «بالهوسة» حتى يهدأ الصوت بعد تساوى منسوب المياه فى الاتجاهين.

أما «الكوبرى» الرشيق فكان يأخذنا إلى عالم أخر من الجمال «لحى توربيل» وهو حى حديث أنذاك جميع مبانيه من الفيلات المستقله، ولكل منها حديقتها الخاصة، زيّنت أسوارها بأشجار الياسمين والزهور لتعطر

شوارعها على مدار الساعة.ويتمتع الحى بحديقة عامة. «حديقة توريبل» الزاخرة بالزهور المتنوعة والأشجار الجميلة ،مما يضيف جمالاً للحى المشهور بالتناسق المعمارى والنظافة ، وتم تحويل الحديقة(*) إلى حديقة صغيرة للحيوانات إستمرت لعدة سنوات، ثم أصابها ما يصيب كل جميل أو تطوير من تدهور لسوء الإدارة.

وقد سميت منطقة البحر الصغير. بهذا الأسم نسبة للترعة أو الرياح المتصل بفرع دمياط للنيل. وهى منطقة تتميز بأبنية حديثة نسبياً عن أبنيه الحارة، وكانت أشهر مجموعة منها بيوت الشناوى نسبة لعميد عائلة عريقة عرفت باسمه، وله قصر جميل يطل على النيل، زاره الملك فاروق عدة مرات.

وقد أقيمت مبانى الشناوى بشكل موحد بطراز الجدران الحاملة من الصخر الجيرى «الدبش»، والأسقف المرتفعة المقامة على كتل خشبية قوية،

ولا يختلف أسلوب النوافذ والتجهيزات الداخلية كثيراً عن منازل الحارة، وإن كانت أكثر ضخامة ،ويتكون كل مبنى من ثلاثة طوابق، الأرضى وله مدخله الخاص من الشارع الرئيسى، حيث يؤجر لمكاتب السماسرة وتجار القطن «والفريزه» من المتخصصين فى تحديد درجة جودته «وطول التيلة» للقطن، حيث يوجد ببداية الشارع أكبر محالج القطن بالمنطقه، وعدد كبير من «الشون» التابعة للبنوك والتجار وهى مخصصة لتخزين القطن «بالزكائب»أو البالات قبل وبعد الحلج أى. بعد فصل بذرة القطن عن الألياف القطنية - وأرجو ألا يصاب القارئ العزيز بالملل من الإسهاب فى وصف المكان، حيث قصدت من ذلك نقل صورة لم يرها السواد الأعظم من شبابنا ، وربما لم يسمع بعصر الذهب الأبيض، حينما كانت مصر أهم منتجى القطن فى العالم، وخاصة طويل التيلة، وكانت تتهافت عليه الدول الصناعية الكبرى باعتباره أجود وأشهر أنواع القطن لصناعة الأقمشة القطنية الفاخرة.

ونعود للحديث عن تصميم «بيوت الشناوى»،فالطابقان العلويان خُصِصّا للسكن بكامل مساحة المبنى، كل طابق سكن مستقل،والمدخل من ممر خلفى يوفر الخصوصية، يفصله عن مدرسة «الزقاء» سور مرتفع.

(*) بعد ثورة ٢٣ يوليو .

وأما سطح المنزل فزاخر بالغرف، التى تستغل فى تخزين الحبوب ولوازم المنزل، وأخرى لتربية الطيور والدواجن، والأهم من ذلك غرفة «الخبيز»، وبها فرن من القرميد الأحمر، ولهذه الغرفة أهميتها الخاصة فى بداية الأربعينات من القرن الماضى، أى زمن الحرب العالمية الثانية التى فرضت على الأسر المصرية تدبير أمورهم واحتياجاتهم الحياتية بأنفسهم دون انتظار للدعم الحكومى. ولندرة الأفران التجارية والتى كانت فى معظمها مخصصة لإنتاج الخبز الأفرنجى «الفينو»، لتغطية احتياجات الجاليات الأجنبية وما أكثرها فى ذاك الزمان بمدن وقرى القطر المصرى، والكثيرون من أفرادها وُلد بمصر وحصلوا على الجنسية المصرية وكانوا يتكلمون العربية بطلاقة كأى مصرى، ولا يفرق بينهم إلا ملامح الوجه - .

ومرحلة السكن فى منطقة «البحر الصغير» كانت مليئة بالأحداث والذكريات، وتحوّل الطفل الحشرى إلى صبى متأمل حالم، قليل الكلام، وموضعْ رعاية خاصة من الجميع - طبعاً كعرف - باعتباره «ولى العهد» أو أكبر الصبية فى الأسرة الصغيرة- ولم يغير ذلك من طباعة، وحبه للمعرفة، وهواياته فى الرسم والموسيقى، وشغفة فى تربية الحيوانات الأليفة، والطيور وارتباطه بها بشكل لافت للنظر، وكثيراً ما كان يذكر صديقة الراحل «الكلب صبيح» وحنينه لمشاهدة الأرانب، أو «عفاريت ورشة مردخ».

وكان هذا الشغف واضحاً لكل أفراد الأسرة وخاصة جَدّه لوالدته «الأستاذ محمد الشافعى أمين موسى» الذى كان يعمل بوظيفة مرموقة بالمحاكم المختلطة- «المتخصصة فى نظر قضايا الأجانب»- ويبدو أن قصة هذه الهواية قد علم بها أحد زملاء الجد من الجاليات الأجنبية، الذى يهوى أيضاً تربية الحيوانات الأليفة، فأهداه كلبة بيضاء صغيره تختفى عينيها خلف شعر رأسها الطويل، وليس هذا فقط، بل أهداه أيضاً قطة بيضاء شعرها أملس قصير، فكانت سعادته بهذه الهدية لا يدانيها سعادة بأى شئ آخر، وأطلق على الكلبة اسم «صبيحة» للإبقاء على ذكرى صديقة الراحل «صبيح» وسمىّ القطة «فلّة» ليس فقط للون شعرها ناصع البياض، بل أيضاً لأهتمامها الدائم بتنظيفة بلسانها. والنوادر بينه وبينهما عديدة، وحكايات راسخة فى «الصندوق الأبيض» يلزم تفريغها مستقلة ضمن حكايات المكان والزمان.

بدر وهلال

قد يتقارب المستوى الاقتصادى والمادى للأسر المتجاورة ولكن - هل يفرض ذلك نوعاً من التقارب الفكرى؟ أو التماثل فى أسلوب الحياة؟ من خبرة صاحبنا أن هذا ليس ضرورياً، ودليله فى ذلك وجود عائلتى «بدر» و«هلال» فى منزل واحد، حيث سكنت عائلة بدر بالدور العلوى الأول، وعائلة هلال بالدور العلوى الثانى، مع اختلاف فى عدد أفراد الأسرتين، وأعمار الأولاد والبنات. بالإضافة إلى الاختلاف الجذرى فى نوع العمل والمهنة.فكبير عائلة بدر هو مؤسس مدارس الأمة الحرة، والتى بدأت على استحياء بإمكانيات مادية محدودة بعد «ثورة ١٩» فى بدايات القرن العشرين، فقد كان أحد عدد قليل من الرواد على مستوى القطر المصرى، تصدوا لفكرة إقامة مدارس مصرية خاصة، ليكون لها وجود وسط المدارس الأجنبية العديدة المخصصة فى معظمها لتلبية إحتياجات الجاليات الأجنبية وخاصة اليونانية والفرنسية والمارونية والأرمنية.

والأمانه تقتضى الاعتراف بالفضل للأصحابه - فكان لتلك المدارس جهداً مشكورا فى تعليم أعداد لابأس بها من المصريين والمصريات، صار لهم نشاطهم وتفوقهم الواضح فى مجالات عديدة بمصر لإجادتهم اللغات الأجنبية.

ولم تكن مهمة رواد التعليم الحر «الخاص» المصرى بالهينة لضعف الإمكانيات المادية، وعدم توافر الدعم الحكومى بصورة كافية، واستمر هذا الوضع لسنوات عديدة، حتى بدأت «وزارة المعارف» فى الأنتباه لأهمية تلك المدارس، ووضعت النظم المناسبة لدعمها ورقابتها، وكان لهذا الإشراف العديد من الإيجابيات والسلبيات، وليس المجال هنا لعرض ما كان لها وما كان عليها. ويكفى أن نشير إشارة عابرة لما قاله مؤسس مدارس الأمه وأحد أعضاء اتحاد أصحاب المدارس الحرة، وذلك فى إحدى قصائده، للترحيب بالدكتور طه حسين وزير المعارف فى لقاء جمع بينه وبين مجموعة من رواد

هذا العمل الوطنى المشكور حيث قال:

نُعلم النِصْف من أبناء أُمتنا

ونصيبنا الثُمن من أموال راعيها

مما يدل على أن مطلب عدالة التوزيع لم يقتصر على زمن الجمهوريات بل كان مطلباً شعبياً فى عصر الملكية أيضاً.

وعند انتقال أسرة «حضرة الناظر»إلى منازل الشناوى بحى البحر الصغير، كانت تتكون من الوالد والوالدة واثنتين من البنات، هما زينب وفتحية، وولدين هما عبد المنعم «راوى هذه الومضات»، والثانى هو سامى الذى ورث مهنة التعليم عن الوالد مستقبلاً وكان من هواياته الألعاب العنيفة كالملاكمة، ويميل للعنف بعكس الراوى، وكان لكل منهم شخصيته وطبائعه المميزة، فالكبرى زينب (زوزو) كانت «هانم» تشبه الأم فى الشكل والطباع إلى حد كبير والأختلاف الظاهر بينهما أن الابنة كانت شديدة الإعجاب بنفسها وكانت تهتم كثيراً بأن تكون دائماً فى أجمل صورة، ولم يكن لها اهتمامات بأعمال المنزل، وتتركها للأخريات وعلى عكس الوالدة حيث كانت شعلة من النشاط بالمنزل على الرغم من أنها «الهانم»، وممتلئة القوام مع لمسة الجمال «التركى» المعروقة نتيجة اختلاط الأنساب فى ذاك العصر.

أما شقيقتها فتحية «توحة» فكانت مزيجاً فى الشكل بين أسرتى بدر والشافعى موسى، وأقرب أفراد الأسرة فى صفاتها «للراوى»، وكانت نشيطة، متعددة الهوايات، لا تتدخر وسعاً فى معاونة الجميع. ويجمع بينها وبين الراوى الحس الفنى، وحب الأدب و الموسيقى، والشخصية الحالمة.

ورزقت الأسرة بعد ذلك «بـ ليلى» «نفرتارى» الأسرة، فقد كانت جميلة الجميلات فنالت القسط الأكبر من التدليل من الجميع، ثم جاء بعدها بعام ونصف تقريباً «محمد الشافعى»، تيمناً باسم الجد والد الأم وهو الولد الأكثر حيوية وجرأة وحباً للمغامرة، فكان من الطبيعى أن يصبح مستقبلاً أحد أبطال الجيش المصرى، بدأ من حرب اليمن مروراً بكافة المعارك حتى نصر أكتوبر ١٩٧٣، وحياة كل فرد من أفراد الأسرة مليئة بالحكايات التى

سيأتى ذكر ما تيسر منها «إن شاء الله» وإن كان فى عمر الراوى بقية فى الجزء الثانى من «كتاب الحكايات».

أما عن عائلة هلال فعائلها يعمل بتجارة «الخيش» - وهو منتج من الجوت كان من ضروريات التعبئة للعديد من الحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى وذلك قبل اكتشاف المواد البلاستيكية لتنتشر العبوات البلاستيكية وتحل محل الخيش دون أن يوقف ذلك الحاجة «للخيش» أيضاً حتى الأن وكان الطلب على الخيش بمديرية «بمحافظة» الدقهلية وخاصة عاصمتها المنصورة فى تزايد مستمر، لتمركز صناعة حلج القطن وتعبئته، وكذلك الأرز لتوصيله لمضارب التبيض، والقمح لتوصيله للمطاحن،وهذا يعنى أن عائلة هلال كانت من العائلات الميسورة مادياً، لكنها كانت من العائلات المنطوية على نفسها.

وكانت تتكون من الأب والأم والإبن الوحيد لهما - كان معاقاً لسوء الحظ - أو ابتلاء من ابتلاءات القدر. وربما كان ذلك من أسباب إنطواء الأسرة، وتسبب أيضاً فى فوات قطار الزواج لشقيقتيه.

وعلى الرغم من حقهم فى استغلال نصف غرف السطح العديدة، فقد تركوا معظمها عن طيب خاطر لتستخدمها عائلة بدر، والاكتفاء باستغلال غرفة واحده والمساحة المفتوحة أحياناً لتخزين كميات من لفائف الخيش فى حالة زيادة المتاح عن طاقة المخزن.

وكان من الصعب على عائلة اعتادت فى الحارة على الاختلاط والتعاون والمودة مع جيرانهم أن تنعزل عن الجار الوحيد بسكنهم الجديد، فبالمودة والاهتمام بحسن الجوار بدأ التقارب وخرجت عائلة هلال عن عزلتها نسبياً، وبدأ التقارب رغم فارق السن الكبير بين بنات العائلتين إلا أن ذلك لم يوقف الاندماج التدريجى، وتبادل الزيارات. حتى بدأت مرحلة المرح والمعاكسات وخاصة من «ذكية» الشغالة التى كانت كثيرة الحركة، تهوى المزاح كارتداء ملابس شحاذه والصعود إليهم متنكرة لتطلب صدقة، أو إرتداء «كمامه الغاز» التى كانت تُعطى كعهدة من الدفاع المدنى لرب أسرة بدر، بإعتباره أحد المشرفين المكلفين بمتابعة المتطوعين أثناء الغارات الجوية فترة الحرب ـ فكانت تتنهز مصادفة وجوده خارج المنزل ، فترتدى الكمامة

وتصعد لعائلة هلال لإخافتهم، وما إلى ذلك من ألوان المزاح الثقيل، رغم ما تتعرض له من توبيخ وتحزيرات من «الست أم عبده»، أو «الست هانم» كما كانت تناديها، وتهديدها بإبلاغ «سيدها» الحاج أحمد «حضرة الناظر».

ومن الحوادث الطريفة تسلل أحد اللصوص ليلاً للسطح لسرقة بعض أجولة الخيش الجديدة الفارغة، ودون أن يدرى بوجود حارس ينام وسطها، مرتدياً «زكيبة» للتدفئة، ويخفى كل جسده حتى رأسه، فتحسس اللص الزكيبة الممتلئة محاولاً التعرف على ما بداخلها. فهب الحارس صائحاً بصوت راعد، فارتاع اللص وفر هارباً، يقفز عدة درجات معاً فوق الدرج الخشبى للدور العلوى، محدثاً صوتاً كأن الدرج قد انهار. وفتحت أبواب العائلتين بسرعة ليروا رجلاً يقفز قفزات كلاعب السيرك وهو يصيح عفريت .. عفريت. ثم خلفه رجل أخر يظهر متعسراً داخل زكيبته وهو يصيح حرامى.. حرامى وظلت هذه الحادثة موضوع ضحك بين العائلتين لفترة طويلة . أما استخدام باقى غرف السطح فلها حكايات أخرى لا تقل طرافة.



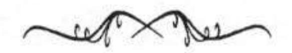
القلب الصغير

فاتنى أن أذكر للقارئ العزيز أن انتقال الأسرة لحى البحر الصغير، كان قد سبقه انتقال مدرسة «الروضة» من ميدان «الطمّيهى» إلى بنايات الشناوى بذاك الحى، والمطلة على حديقة الشناوى، وكانت خطوة ذكية، فقد أتاحت لتلاميذ هذه المرحلة فرصة قضاء «الفسحة» واللعب فى الحديقة، كما أتاح وجودها أيضاً بجوار مدرسة الأمة للبنات «المرحلة الإبتدائية»، للأستاذه زينب، - الشقيقة الصغرى لمؤسس المدارس الأستاذ أحمد بدر - الاشراف عليها ومن الجدير بالذكر أن مراحل التعليم كانت فى بداية العقد الرابع من القرن العشرين تختلف عما هى عليه الأن، حيث لم تظهر المرحلة «الإعدادية» إلا بعد ثورة ٢٣ يوليو، فأصبحت مرحلة جديدة بين المرحلتين الابتدائية والثانوية، وتعديل عدد السنوات لما هو معروف الأن.

وكانت المرحلة الأولى للتعليم فى الفترة السالفة تعرف بمرحلة الروضة، لأطفال من سن الرابعة حتى الثامنه تقريباً، ثم تليها المرحلة الابتدائية أربع سنوات والحصول على الشهادة الابتدائية التى تهيئ التلميذ للالتحاق بالمرحلة الثانوية للحصول على شهادة «الكفاءة» أو الثقافة بعد أربع سنوات تليها مرحلة التوجيهية لعام واحد يتوجه الطالب بعدها للجامعة حسب تخصصة سواء أكان علمياً أو أدبياً.

ومن ومضات الذاكرة عن هذه المرحلة المبكرة - حديقة الشناوى الملاصقة لمقر مرحلتى الروضة والابتدائى بنات. وكانت متنفساً للتلاميذ والتلميذات تحت رقابة مشددة من المعلمات والمديرة الحازمة، وكانت تسمى «أبلة زوزو» وكانت رقابتها مزيجاً من الحنان والصرامة ولكنها صرامة لا تؤذى أحداً. وعُرف صاحبنا بين الأطفال بالطفل الهادئ الحالم، كثير التأمل فيما حوله من أشجار وزهور، وكثيراً ما كان يجمع بعضاً من هذه الزهور المنتشرة يحتفظ بها بين صفحات كراسته الصغيرة. وأحياناً يقدمها لمعلمة الفصل «أبلة

أمينة» فتتقبلها منه فى سعادة، وتحمله معانقة، وتطبع على خده قبلة سريعة، فتسرع ضربات قلبه الصغير، ويشعر بنشوة وسعادة تختلف عمّا يشعر به من إحساس بالأمان والراحة بين أحضان أمه، ومازال هذا الطفل يبحث عن تفسير لهذا الشعور الجميل المختلف، فهل كان رد فعل لحالة حنان زائد أم هو نوع من «الحب والهيام» قد يصيب القلوب الصغيرة فى سن الطفولة المبكرة!! ربما ولما لا؟؟



روضة شجرة التوت

موقع مدرسة الروضة بجوار حديقة عامة وهى حديقة الشناوى، ورغم أنها الميزة التى كان أطفال الحديقة يجدون فيها متنفساً للعب والمرح ـ إلا أن ذلك كان مصدر قلق دائم، ويتطلب متابعة ومراقبة دقيقة من المعلمات المشرفات للحفاظ على الأطفال ـ كما أن المكان لم يكن فيه امكانيات للتوسع وإضافة فصل جديد، لذا كان من الضرورى البحث عن مكان أخر لمرحلة الروضة، واستغلال الفصول المخصصة لمرحلة الروضة لتوسعات المرحلة الإبتدائية للبنات. وجاءت الفرصة بخلو فيلا قديمة خلف مبانى المحكمة المختلطة ،وكانت مشهورة بوجود شجرة توت عملاقة بحديقتها، وتم استئجارها فوراًالنقل مرحلة الروضة إليها مع بداية العام.ولم يشعر الولد الحالم بالغربة فى المقر الجديد ،وفيه أيضاً مجموعة لا بأس بها من الزهور التى يحبها، وتزورها أحياناً فراشات مختلفة الأحجام والألوان، فيطاردها كعادته ولا يمسك بها ولكن ليتأملها عن قرب.

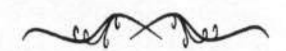
كما أن وجود شجرة التوت الضخمة كانت تجربة جديدة يشعر بصغره بجوارها، وعجزه عن الوصول لفروعها التى تحمل التوت. وكان يتولى جمع التوت «عم محمود» حارس المدرسة الجديد- ذو الرأس الكبيرة والعمامة المطرزة بخيوط ملونة لافتة للنظر- وذلك بوضع «حصير» أسفل الشجرة فيقع عليه التوت دون تلوث من الأتربة، ثم يجمعها للتوزيع على المدرسات،واهتمامه بغسيل بعض منها ليتناوله من يرغب من الأطفال.

وكان جلوس عاشق الزهور والفرشات فى الصف بجوار «بنوته» جميلة اسمها «بسمة»، يشاركها فى ترديد الأناشيد، ويعرض عليها مهاراته فى الرسم،متحدياً إياها أن تقلد رسمه، وكان يتقاسم معها ما يحمل فى حقيبته الصغيرة من «بسكويت أوساندوتش». وفى بداية شهر الصيام، أفهمته الأسرة أن الصغار أعفاهم الله من فريضة الصيام حتى يكبروا ،ليقبل وضع الطعام

فى حقيبته كالمعتاد ، وفى الفصل حاول تقاسم ما يحمله مع زميلته «بسمه»، كالمعتاد فادعت أنها صائمة ، - فصار يجادلها بأن الصغار فى عمرهم لا يصومون، وهى مصرة بأنها صائمة، فطلب منها فتح فمها ليتأكد بنفسه ففتحت فمها فوضع لسانه على لسانها ليتذوق ما أكلت قائلاً - «يا كدابه!! إنتى فطرتى فول» - ومن المضحك أن ابلة سُعَاد «مدرسة الفصل سمعت ولمحت ما حدث فإنفجرت فى الضحك وسألته ماذا فعلت؟ [فرد فى براءة بتضحك علّيه وبتقولى إنها صايمة، وأنا مابحبش الكدب] وصارت هذه الواقعة حديث شهر رمضان بين المدرسات يتندرون بها من وقت لآخر.

ومن المضحك أن «بسمة» بعد أن كبرت تواصلت مع شقيقاته «زوزو وتوحة» وكانوا يتزاورن رغم فارق السن من وقت لأخر، فإن ظهر صاحبنا فجأه تختبئ بسمة خجلاً رغم مضىّ العديد من السنين، ولا أحد يدرى أكان ذلك خجلاً بسبب «الكدبه» أو بسبب طريقة إكتشافها!!.

ومن ذكريات حضانة شجرة التوت، وقربها من المحكمة المختلطة، أنه كان فى بعض- الأيام - خاصة فى نهاية الأسبوع يصبحة أحد «الفراشين» ليوصله لمكتب جده بالمحكمة كترتيب معتاد باتفاق مع الأسرة لقضاء نهاية الأسبوع مع جده لأمه الأستاذ/ محمد الشافعى موسى، ويحظى باستقبال حماسى من زوجة الجد الثانية «الحاجة» التى لم يرزقها الله بالإنجاب، فكانت تستمتع كثيراً بزيارة هذا الحفيد «الغلباوى»، متعدد المواهب والهوايات، فيملأ البيت حركة. أما عن قصصه فى منزل الجد الشافعى فهى كثيرة ومليئة بالذكريات الطريفة (عن التحول ونمو الأطفال جسدياً وعقلياً لمرحلة الصبى والمراهقة) وتستحق أن يخصص لها حكايات مستقلة.





روضة البنات ويظهر بها شقيقتى الراوى زينب وتوحة

بجوار حضرة الناظر

ديك البرابر

من الأمور المستهجنة حالياً ـ تربية الدواجن بأنواعها بالمنازل، وهو أمر طبيعى لخطورته على الصحة، وما يترتب على ذلك من تشويه للمظهر العام للمنازل، ليس فى المدن فقط، بل حتى فى بعض القرى الكبرى التى نالت حظها من التطور، فلم يعد هناك ضرورة لذلك مع توافر الأسواق والجمعيات بل «السوبر ماركت». وهو ما لم يكن متوافراً فى العقود الأولى من القرن العشرين، وخاصة فترة الحرب العالمية الثانية.

وحينها كان يراعى فى بناء المنازل توافر غرف أعلى المنزل، تخصص لسد هذه الحاجات الحياتية الضرورية، لتسمح باعتماد كل أسرة على تدبير شؤونها بنفسها دون الاعتماد على ما قد يتوافر منها بالأسواق لندرته، فلا غرابة فى وجود العديد من غرف الخدمات بأبنية هذه الفترة من الزمن، ومنها «بيوت الشناوى». فكانت تسمح للقاطنين بتخزين الغلال والحبوب الأخرى، بل كان يوجد فى بعضها غرفة خاصة «للفرن» ويكون مبنياً من القرميد «الطوب الأحمر» بما يسمح بإعداد الخبز والمخبوزات الأخرى منزلياً وكذلك تربية الطيور والأرانب.

وكان وجود مثل هذه الغرف ميزة كبرى عند عرض المساكن للتأجير ولا عجب فقد كان المعروض منها يزيد عن الطلب، وترى لافته شقة للإيجار فى العديد من الشوارع، والتنافس بينها كان يعتمد على مثل هذه المزايا، ومزايا أخرى كوجود غرفة للغسيل، وأخرى لنوم الخادمة «والله يرحم أيام زمان».

وكان الاهتمام بتربية الدواجن منزلياً هو الأكثر شيوعاً لسهولته نسبياً، ولغياب المزارع الكبرى المتخصصة ولم يبدأ شيوعها إلا فى ستينيات القرن العشرين.

وهنا ظهرت هواية جديدة للولد المتعدد الهوايات، فكان يشارك بسعادة فى

إطعام الدجاج، والجلوس لفترات قد تطول ليتأمل حركتها وتصرفاتها تحت قيادة ديك رائع الجمال والقوة، ويسرح طويلاً ناظراً إليه متأملاً ألوان ريشة الرائع، وذيله المقوس فى رشاقة، ورقبته المرفوعة فى كبرياء، ولمعة ريشه المشُرّب بالحمرة واللون الذهبى، يتأمله بانبهار وحب ظاهر. وكان هذا الطائر المعتد بذاته لايسمح لأحد غيره بإطعامه، فيختار له أفضل الحبوب، ويزيل منها بنفسه أى أجسام غريبة «كالزلط والحصى»، أو أى حبوب غريبة لا يعرف ما هى كالدنيبة. وذكية تراقبه ساخرة وهو لا يعبأ بها. وتطورت العلاقة بينه وبين «ديك البرابر» رائع الجمال إلى حب وصداقة متبادلة، وذلك على الرغم مما عرف عن هذا الديك من شراسة وعنف ومهاجمته لكل من يقترب من دجاجاته، وخاصة «ذكية» عندما تصعد لاقتناص بعض منها للذبح، فكثيراً ما دفعت ثمن ذلك نقراً وخدوشاًبمخالبه الحادة دفاعاً عن زوجاته، وكانت تراعى أن يحدث ذلك وقت تواجد صديقه بالمدرسة حتى لا يعترض مدافعاً عن أسرة صاحبة.!!

أما تصرفات ذلك الطائر الجميل مع صديقه فكان أمراً ملفتاً لنظر من الجميع، فكان يأتيه فوراً بمجرد رؤيته، وهو يحدث أصواتاً كأنها نوع من الترحيب، ويبقى أمامه فى هدوء، بل أكثر من ذلك كان يسمح له بالمسح على ريش صدره فى حنو لا يخفى إكتشافه بالغريزة على مخلوق رائع من مخلوقات الله الخلاق العظيم - سبحانه.

ويبدوا أن العداء الواضح بين ذكية وديك البرابر، ورغبتها فى الثأر منه زادت، فبدأت فى الكيدله لدى «الست هانم»، بدعوى الخلاص منه قبل أن «يشيخ» ويتيبس لحمة - وكان ما كان فرسمت الخطة مع أحد عمال النظافة بالمدرسة التى يمتلكها رب الأسرة - فتعاونا على الإمساك به والإجهاز عليه دون أن يشفع له لون ريشه الساحر، أو صياح دجاجاته، وتحول بعد ساعات مع إحدى زوجاته إلى وجبه للغذاء.

وعاد عاشق الألوان وصديق الحيوانات والطيور والزهور من المدرسة فى موعد الغذاء، وجلس وسط الأسرة، فلاحظ بنظراته الثاقبة عدم تماثل حجم «الدجاجتين» فى إناء التوزيع، فخفق قلبه وتذكر ما كان يتردد من حين لأخر للرغبه فى التخلص من صديقه للاستراحة من شراسته، فترك مائدة

الطعام وصعد مسرعاً لسطح المنزل، وعاد إلى غرفته باكياً. وبدأت محاولات الأسرة لِتهدأته وإقناعة بتناول الغذاء، فرفض بشكل قاطع قائلاً «عاوزنى آكل صاحبى» ؟؟ ولم يخفف قليلاً من حزنه إلا تضامن الوالد معه، وتعنيفة لكل من شارك فى هذه «الجريمة» كما أعلن رفضه أيضاً المشاركة فى التهام صديقه ثم كان لهما جلسة خاصة، تحدث فيها الوالد عن الحرام والحلال، ولماذا سخر الله للأنسان بعض مخلوقاته الأخرى، كالخيول والحمير والجمال لركوبها والأسماك فى البحار، والطيور والأغنام للطعام، ولماذا حرم الميتة والدم ولحم الخنزير، فكان صاحبنا رغم صغر سنه يسمع باهتمام، ويكرر ما سمعه لبعض أصدقائه، ولشقيقاته الأكبر سناً، متباهياً بأنه يعلم أشياء أكثر منهمن .



مغامرات فلّة وصبيحة

بعد حادثة الغدر «بديك البرابر» زاد اهتمام عاشق الألوان بهدية جده لوالدته «الشافعى موسى» وهى القطة فلّة، والكلبة صبيحة ـ فعودهما على تناول الطعام معاً، واللعب معاً دون إيزاء أى منهما للأخر، وكانت الأسرة تتعجب لقدرته على التعامل معهما، وإستجابتهما لأوامره رغم العداء التقليدى بل الغريزى بين فصيلتى القطط والكلاب. مما كان مثيراً للعجب، وتعليقات الأسرة،ورصدهم لذكاء فلة وصبيحة وقدرتهما فى معرفة موعد عودة صاحبهما من المدرسة، فتتوجهان لباب الدخول فى انتظاره، وتبدأ صبيحة فى إحداث أصوات لاهى نباح ولاهى بالبكاء إيذاناً بوصوله للممر الخلفى للمنازل المؤدى للمداخل السكنية. وما أن يصل للباب تسرع ذكية لفتحه دونما حاجة لانتظار سماع الجرس، فحركات صبيحة فيها الكفاية للإعلان عن وصولة. وبمجرد دخوله تقفز فله قفزة واحدة فتصبح على كتفه، أما صبيحة فتتراقص حول ساقية فى فرحة عارمة، تجعل خطواته للدخول أمراً صعباً .فيضطر للانحناء، وحمل صبيحة هى الأخرى، ويدخل بهما غرفته ليفرغ شحنه الشوق المختزنه فترة غيابه بالمدرسة، ولا يهدأ لصاحبنا بال حتى يقدم لهما الطعام أولاً قبل جلوسة لمائدة الطعام - مع حرصة على غسيل يديه جيداً تمشياً مع تعليمات الوالدة- وفلة وصبيحة تلزما البقاء أسفل طاولة الطعام بالقرب من كرسيه فيتعمد الإسراع فى طعامه، فتصدر له أوامر الوالد المتكررة بمدغ الطعام جيداً حتى لايصاب بعسر الهضم ومن المضحك أنه كان يستمر فى المضغ تنفيذاً لتعليمات الوالد، فى حين أن فمه أصبح خالياً من الطعام، وحين أكتشاف أمره يصبح موضع تعليقات ضاحكة وساخرة من الكبار.

وفى المساء وفى سريره المعدنى ذى الأعمدة البيضاء المحلاة بحليات من النحاس الأصفر، المعد لتركيب «الناموسية» لحمايته من لدغات الناموس أو

مضايقات الذباب. كان يسمح فى أحيان كثيرة لشقيقه الأصغر «سامى» مشاركته الفراش رغم تفضيل سامى مشاركة الوالدة فى غرفتها حتى لا يضطر لمشاركة فلّة وصبيحة فى الفراش. وكان يفضل دائماً سريره للونه الأبيض، رغم أن سرير شقيقاته أكبر، لكنه مطلى باللون الأسود، وحلياته النحاسية الصفراء يظهر جمالهابصورة أفضل مع اللون الأسود.

أما مشاركة فلة وصبيحة له فى الفراش فهو أمر مفروغ منه بعد قتل الموضوع بحثاً دون فائدة، فطالما خشيت الأسرة أن يصيبه شئ من الأمراض التى تنقلها الحيوانات الأليفة، وخاصة أمراض الحساسية. ورغم هذه التحذيرات وخاصة فى الشتاء كانتا تتسللان لفراشة، وخاصة فى الليالى الباردة فيشير لصبيحة بأن تلزم مكانها بالقرب من قدميه ليقلل شعرها الكثيف من شعور قدميه بالبرودة أما فلّة فتنتقل من مكان لأخر مرة أسفل اللحاف ومرة فوقه، فعادتها أن تكون أكثر نشاطاً ليلاً، فى حين تمضى ساعات عديدة من نهارها نائمة. فكان يتركها ليلاً تطوف بالمنزل، لعلها تظفر بحشرة تطاردها حتى تظفر بها، وغالباً تكتفى بقتلها دون أكلها.

وعن نوادر «فلّة» ضبطها فى أحد اليالى فأراً تسلل عبر نافذة بالمطبخ تُركت مفتوحة، فأسرعت خلفه حتى هاجمته فى ركن أسفل «البوفية» فى غرفة الطعام، وبدأ العراك فشد الصوت انتباه صبيحة، فتركت الفراش مسرعة لنجدة صديقتها، ولم يتركا الفأر إلا جثة هامدة. فأسرعت ذكية بالتخلص من جثة القتيل حتى لا تتعرض للوم شديد لتركها نافذة المطبخ دون غلقها، وربما خشية أن يحلو لفلّة وصبيحة تجربة لحم الفئران، فترفضا أن تأكلا من الطعام الذى تعده لهما.

وعادت صبيحة فرحة تهز زيلها فى سعادة المنتصر، وخلفها فلّة تتوقعان الترحيب بهما، أو تشجيعهما، فكان جزاؤهما النهر والطرد خارج الغرفة، فليست الفئران مما يهوى صاحبهما رؤيته أو صحبته، وينفر من قزارتها، لذا أعلنت حالة الطوارئ بالمنزل ليتم حصار فلّة وصبيحة لمنعهما من دخول غرف النوم، حتى يتولى صديقهما بمعاونة ذكية عملية نظافتهما بحمام دافئ، كانت «صبيحة» تستمتع به دائماً، بخلاف «فلّة» التى كانت تنفر منه، وتحاول الإختباء عند شعورها بقرب موعد الاستحمام.

ولا شك أن وجود مثل هذه الحيوانات الأليفة بمنزل ملتزم، وجميع أفراده لا ينقطعون عن الصلاة وليس هذا فحسب ـ بل كان هناك يوم محدد لحضور أصدقاء الوالد من علماء الدين والشيوخ ـ ولا مانع من وجود بعض مدّعى المعرفة ومحبى الجدل عن غير علم- لمجرد الجدل، وإثبات الوجود- وكان صاحبنا يلاحظ رغم صغر سنه أن «المضيف» ينأى بنفسه عن مجادلتهم، ويترك ذلك لغيره من الحضور، ويكتفى بتعليق مختصر فى نهاية الحوار. وفى مثل هذه الصحبة ونوعية الضيوف كانت تُعلن حالة الطوارئ وتُحدد إقامة «صبيحة»بحبسها إنفرادياً حتى لا تسبب أى أزعاج، أو تكون سبباً لمزيد من الجدل، وذلك دون اعتراض من صاحبها ،بفطرته - ومما كان يستوعبه مما يقال حوله - كان يعلم أن اقتناء الكلاب غير مستحب لاتهامها بأنها «مصدر نجاسة»، بل ومرفوض بشكل قطعى من البعض، لكنه كان يكرر دائماً عند طرح الموضوع ما سمعه من ابن عمته د. لبيب السعيد أن إسم «صبيحة» هو اسم كلبة الرسول «عليه صلاة الله وسلامه» فترة رعية للغنم قبل نزول الوحى، أو يكرر ما سمعة من أن رجلاً دخل الجنة لأنه سقى كلباً كاد يهلك من العطش.

وكان لسماعة لتلك الحوارات فى سن مبكرة قد زرع فيه عادة عدم قبول ما يقال دون تفحص وإعمال العقل، فإن كان فيه خير للنفس والغير فهو أمر مقبول، ولو إلى حين، أما لو كان ليس فيه فائدة، أو فيه من الضرر أكثر مما فيه من فائدة رفضه ولم يأخذ به، وأصبح ذلك أسلوب تفكير وحياة، وكما يقال «فالتعليم فى الصغر كالنقش على الحجر».



مدرسة حي الحُسنية

نهاية الإسبوع التى كان يقضيها الولد المحب للمعرفة فى منزل جده لوالدته«والحاجة مجيده» زوجته أصبح من عاداته التى يحرص عليها، ليس فقط لرؤية السعادة فى عينى الحاجة المحرومة من الأبناء، أو حبه وارتباطه الشديد بجده «الشافعى بك» كما يناديه معظم معارفة، بل كان الدافع الحقيقى هو وجود أشياء عديدة لاتوجد فى منزل الأسرة، وأشياء أخرى لا تماثل ما يوجد منها، فكان لابد بحكم طبيعته أن يبحث عن الاختلاف، وتفحص الأشياء لمعرفة كل جديد.

فقد كانت إقامة الجد فى أحد أملاكه بمنطقة «الحُسنية» وكانت من المناطق الهادئة والحديثة نسبياً، والمنزل يتكون من ثلاثة طوابق يسكن الجد فى الدور العلوى، وهو مجهز بطريقة مختلفة، من حيث التشطيب المتميز، أما الدور الثانى فكان يسمح لشقيق الحاجة باستخدامه، والدور الأرضى لا يسكنه أحد برغم ازدحامه بالأثاث القديم الذى تبين الراوى قيمته وأنواعه النادرة مع تتقدم السن- وأسفاره المتعددة، وأسماء وأنواع التحف، كالنجف من «الأوبالين»، وأنواع قديمة من الكريستال، وفازات صينية عملاقة من النحاس المطلى بالميناء الملونة «الكلوازونيه» أو «اللّك» والعديد من التحف الأخرى التى لا تلقى الاهتمام بتنظيفها إلا على فترات متباعدة.

هذا كما أن هناك أشياء موجودة بمنزل الأسرة لا وجود لمثلها فى منزل الجد، فمثلاً لا يوجد فى منزل الجد فرن المخبوزات التقليدى فى غرف السطح، ويوجد فرن حديث أخر داخل المطبخ يعمل بالكيروسين «الجاز الأبيض»، الذى يعبأ فى اسطوانه كبيرة مزودة بمنفاخ لضغط الهواء داخل الاسطوانة لدفع الكيروسين للفرن، «والكوش» العلوية«الصامته» الشبيه «بكوشة وابور الجاز» فيمكن تشغيل أكثر من شعلة واحده وطهى أكثر من نوع ووضع صوانى بالفرن كل ذلك فى نفس الوقت.

وفى منزل الجد كان هناك الكثير مما يختلف عما تعود على رؤيته فى منزل العائلة وحتى لو كانت متماثلة كالدَرجَ الخشبى المؤدى للسطح، فكلاهما خشبى، ولكن الذى فى منزل الجد مطلى بطلاء لامع كما تلمع قطع الأثاث الخشبية بمنزله كله كالصالون الوردى اللون من «خشب الروز وودى» واختلاف أنواع وألوان وحجم السجاد المنتشر فى الغرف، وكذلك تجهيز الحمامات أما «البلكونة» فلم يكن لها وجود بمنزل الشناوى، فى حين أن وجودها مصدر متعة حقيقية بمنزل الجد، حيث يجلسون بها ويتناولون الإفطار معاً فى الأيام الدافئة شتاءً، والمعتدلة صيفاً قبل السفر لرأس البر، أو العودة منها فى بداية الخريف ويتضح أهمية تكرار زيارة منزل الجد فى تلك السن المبكرة، كان له أثره لتوسيع مداركه وبأن هناك تطوراً دائماً فى أدوات وأساليب الحياة، وأن التجديد الدائم فى الأفكار لتحسين مستوى المعيشة أمر محبب يجب السعى إليه دائماً.

وكانت تتواجد بالمنزل بصفة شبه مستمرة «إحسان» ابنه شقيق الحاجة، وهى فى سن الحادية عشرة تقريباً ،أى تكبر الولد بحوالى أربع سنوات فكانت تمارس دور الأم معه بصورة مضحكة، بإعتبارها الأكبر، والمكلفة بحكم الواقع - بمراقبته وتوجيهه وكثيراً ما قالت له فى شيئ من الغيظ «هو أنا كل ما أقولك حاجة تقولى ليه؟» فكان يستغرب من ضيقها، فهو بطبيعتة تعود ألا يأخذ الأمور على علاتها دون أن يفهم، أو يقبل ما يقال دون تفكير. ومع ذلك بدأ التعود والتفاهم بينهما، وبدأ يستجيب لبعض توجيهاتها باعتبارها الأكبر سناً، فبدأت تعلمه لعب الورق «الكوتشينة» و«الدومينو» فكان يجد فيها شياً من التسلية والمناكفة والمشاكسة لها فى جو من المرح لكسر الملل. كما بدأ هو أيضاً فى تعليمها الرسم بالألوان وتناسقها، وكانت تتعجب لقدرته على رسم تفاصيل الأشياء أفضل منها فى تلك السن المبكرة، مع محاولة إخفاء غيرتها منه، وبدأت مرحلة تبادل الخبرات والدروس بينهما، وكان ما كان. حتى ولو كانت دروس «خارج المقرر».



دروس غير مقررة

كان من المسموح لإحسان دخول المطبخ لإعداد القهوة «لجدو والحاجة»، أو المساعدة أحياناً فى إعداد الطعام، ولماذا لا يسمح له بذلك فى حين أن «جدّو» بنفسه أحياناً يدخل المطبخ لإعداد «طاجن البامية» بطريقته الخاصة؟ فكان يشرح له أن التعامل مع النار وأدوات الطهى له خطورته، ولا يسمح به إلا لمن كانوا أكبر سناً، أما العناية بالزهور والفل «بالبلكونة» وكذلك «بالبرجوله» المقامة بالسطح فمهمة كان يكفى أن تتم أمامه مرة واحدة ليتعلمها ويتقنها، ويتابع نمو الزهور واحدة تلو الأخرى فى شغف واهتمام. ولكن من المحظورات أيضاً تنظيف «الفازات» وأدوات الزينة المصنوعة من الكريستال خشية كسرها أو يصيب نفسه بجروح.

وكانت من الأمور المحيرة دخوله للاستحمام وحده، ورفضه دخول أحد معه رغم خشيتهم من عدم قدرته على ضبط درجة حرارة خلاط الدش، - كان سخان المياة شبيهه بالبرميل الصغير (يعلق على حامل مرتفع بالحائط)، نصفه العلوى لتخزين المياة والنصف السفلى به مكان يكفى لإدخال «وابور الجاز» ذى الكوشة الصامته وهو من منتجات الخواجة «بريموس» الشهيرة، وبإشعاله يصل الماء لدرجة الحرارة المطلوبة، وبفتح المحبس لتوصيله فى خلاط الدش.

وكانت إحسان تتندر عليه كثيراً لخجله، وتعايرة بأن الخجل من صفات البنات وليس الأولاد، وأن الجسد خلقه الله، ولا يجب أن نخجل منه فكان رده، ألا يخجلك أن أراك فى الحمام - فقالت له «وأيه يعنى؟ ما أنت أخويا الصغير» ولكن طبعاً لن أسمح للكبار برؤيتى عارية فأستغرب هذا التحليل! فما هو الفرق بين الصغار والكبار ليكون سبباً للخجل؟ ولكنه بدأ يقتنع أحياناً بوجه نظر إحسان باعتبارها الأكبر سناً، والأكثر معرفة وخبرة!!.

وكان المنزل يخلو أحياناً لهما، وكان حب الاستطلاع واكتشاف الجديد

يدفعه لتوجيه أسئلة عديدة دون أن يعلم أنها من المحظورات، وحين يوجهها للكبار لا يحصل على إجابة غير الضحك أحياناً، أو الرد بكلمة عيب. ولذا فليس أمامه سوى إحسان ليسألها، فلعل لديها الإجابة فلماذا خلق الله الولد والرجل بشكل يختلف عن البنت و«الست»؟ ولماذا تكبر بطن البنت بعد الزواج، وقبل وصول المولود الجديد؟ وتصبح أماً؟ ومن أين يخرج؟ وكان يمطر إحسان بسيل من هذه الأسئلة فتضع هى الأخرى إصبعها على فمها كإشارة له بالسكوت، وهى مستغرقة فى الضحك وهو مندهش ويبتسم ابتسامة الاستغراب، لأنه يراها أسئلة محتاجة لشرح حتى يفهم كيف يخلق الله مخلوقاً ،وعدم حصوله على إجابة كان يذكره بأسئله للكبار، وهو أصغر بعده سنوات وخاصة «لذكية» التى لم يحصل منها على إجابة سوى الضحك، وذلك حينما سألها لماذا يقفز «ديك البرابر» فوق الفرخة وهو يمسك رأسها بمنقاره؟ وماذا فعلت ليعاقبها بهذه الصورة؟ ولماذا البطة الكبيرة التى كانت تسميها ذكية «بدكر البط» تركب على ظهر البطة الصغيرة أيضاً وهى تصيح ولماذا تضع الفراخ البيض فتأكل بعضه ولا نأكل البعض الأخر، ونترك الدجاجة تجلس فوقه فارده جناحيها ـ أتفعل ذلك لحمايته منا حتى لا نأكله؟

وبدأ التقارب بينه وبين إحسان لأنها تسمع له ضاحكه دون أن تنهرة ليصمت،بل تحاول الإجابة لم يكن يفهم منها شيئاً، وهو فى سن أصغر كالبيض الملقح وغير الملقح وأن الفرخة ترقد عليه لتدفئته فينمو بداخله الكتكوت، ويكسر القشرة بمعاونة أمه ويخرج للحياة، ليأكل الحب كما تفعل أمه، ليكبر ويصبح مثلها ومثل أبيه، فتقبل ما قالت، وسرعان ما باغتها بسؤال أخر أيه إللى يخلى البيضة مرة تطلع فرخة ومرة تطلع ديك؟ فصرخت إحسان « يو بقه ـ دوشتنى كفاية أسئلة».

ثم بدأت فى شغله باللعب، أو رى نباتات الزينة أومصارعته لمعرفة من الأقوى، وتتصنع الهزيمة، وتسقط على الأرض محتضنه إياه فى صورة يفسرها أطباء النفس «باللعب الجنسى، أو العبث الجنسى» كما يطلق عليه المراهقون لعبة «عريس وعروسة». وتوطدت العلاقة بينهما وبدأ حاجز الخجل ينكسر حتى وصل إلى الاستمتاع بالاستحمام معاً وتبادل دعك الجسد كل للأخر،

والضحك وتبادل الرش بالمياة دون مبالاه إن كان هذا العبث من الممنوعات أو مسموح به، وهو رغم صغر سنه كان يتأمل حركتها وهى عارية، وخاصة حينما تمد عنقها ورأسها لأعلى وذراعيها للخلف، واقفة على أصابع قدميها وكأنها تهم بالطيران وتنساب المياه على وجهها وصدرها فيظهر جمال جسدها، وعلامات الأنوثة فى بداية تكوينها، فظلت هذه الصورة مرسومة فى ذاكرته لا تمحوها الأيام.

وأحست الحاجة بأن أمراً ما يحدث فى غيابها وانفرادهما معاً، فبدأت فى الفصل بينهما خاصة فى الفراش، أو الجلوس بعيداً عن الأعين، حتى ولو كان ذلك فى برجوله السطح لرى الزهور. وبدأت تقل مرات اصطحاب «جدو» له فى نهاية الأسبوع، وأصبح الجد هو الذى يزور العائلة لقضاء يوم الجمعة معهم، ويبدأ اليوم بالإفطار معهم من خيرات الله التى يحضرها معه، وخاصة «طعمية نافع»الشهيرة التى كانت تنتشر رائحتها المثيرة للعاب لمسافات طويلة من محله المقابل لحلوانى «راندوبلو» الذى كان يقدم الحلوى والمثلجات والمخبوزات فى «سرفيس» من الفضة الخالصة ومع ذلك كان الإقبال على طعمية نافع أكثر بكثير من حلوى «راندوبلو»- كما كان من المعتاد مروره على بقالة شهيرة أيضاً لإحضار الأجبان الفاخرة وخاصة «الشيدر الحمراء» التى كان يحبها الأحفاد بشكل خالص، ولا ينسى طبعاً الخبز «الفينو والسميط» من فرن «أبو كاتينه»، - نسبة لابنته- جميلة الجميلات بالمنصورة، ومصيف رأس البر معاً -والفرن يواجة مدرسة «الزرقاء» وتقع منازل الشناوى خلفها مباشرة. فكان يصل الخبز ساخناً ورائحته يصعب نسيانها.

وتباعدت اللقاءات بين إحسان والولد، ومرت السنوات وأصبح فى العام الرابع الأبتدائى وبرغم ذلك لم ينسى صورة جسدها الذى ظهر عليه علامات التحول ليصبح جسد أنثى، وراح يتخيلة ويرتسم أمامه فى صفحات كراسة الرسم وكان يحاول إخفاء التفاصيل برسم غلالات من الأقمشة التى تبدو شفافة، أثارت إعجاب بل واستغراب «الأستاذ خليل»، وكان يفصلها عن الكراسة ويحتفظ بها، وفوجئ الأستاذ خليل للمرة الثانية عندما رأه يُحوّل طين الصلصال فى «غرفة الأشغال» إلى شكل [جسد فتاه تقف على أطراف أصابعها رافعة برأسها وعنقها لأعلى تمدذراعيها للخلف كأنها تهم بالطيران]،

فأضاف إليه بعض اللمسات لتقويته بشكل يسمح لعمل قالب من الجبصين يمكن تجميعه مرة أخرى ليصب بداخله بعد عزله بمواد خاصة. تسمح بإعداد نسخ مكررة من التمثال تطلى بعد أن تجف جيداً «بالبرونز والجملكة»، ويتم استعمال اللون الزيتى الأخضر لأكسدتها لتبدو كالنحاس القديم. وأهدى من هذا التمثال نسخاً عديدة لأصدقائه، ومنهم عدد من أفراد أسرة حضرة الناظر، مع التأكيد عليهم بعدم ذكر أى علاقة له أو للولد بهذا التمثال. وسأل الولد الأستاذ خليل عن الاسم الذى أطلقه على التمثال فقال «براعم تتفتح» فسأله «يعنى أيه براعم»؟...



العقاب بالضرب ممنوع

كان فكر حضرة الناظر كمربى هوايته القراءة بنهم فى كافة المجالات، أصبح تفكيره تَقدْمياً دون تنظير أو تباهى بأنه يختلف عن الاخرين. فمنع الضرب بمدارسه، وحظر دخول المدرس وبيده الخيزرانه المعتادة، ليؤدب بها من يخالف أوامره، أو يُهمل فى دُروسه، وهو ما كان أمر عادى بكافة المدارس، بل أصبح عُرفاً فى وسائل التعليم، ولكن حضرة الناظر كان يريد تجربة **التعليم بالحب**، فقد لاحظ أن اجتهاد التلاميذ وحبهم لمادة من المواد أكثر من غيرها، يرتبط ارتباطاً مباشراً بحبهم لمدرس المادة - وبالعكس وكان يتحدث كثيراً للأساتذة عن ضرورة تجربة ذلك برغم اعتراض البعض بدعوى «شقاوة» بعض التلاميذ، بل وشراستهم أحياناً، وميلهم للعنف. وكان «الولد» ينصت باهتمام فى صمت لما يقال فى تلك الجلسات، وهو فى الغرفة المجاورة «السكرتارية» بجوار الأستاذ«الشناوى»، يستفيد من بعض أوراق المسودات ليرسم على ظهرها قبل تقطيعها. فالقلم يتحرك على الورق تلقائياً، وأذنه تلتقط الحوارات الساخنة فى حجرة حضرة الناظر. وفهم أنه تم الأتفاق على تحويل التلميذ المشاكس أو غير المطيع، أو المهمل لحضرة المعاون المشرف الرياضى فى نفس الوقت الأستاذ أحمد أبو ليلة، وهو الوحيد المسوح له بحمل الخيزرانه لضبط الأمن وخاصة أثناء «الفسحة»، ولإيقاف ما ينشب من مشاجرات قبل تعرض أى من التلاميذ للإيذاء.

ومن الذكريات التى لا تنسى،وحين كان الولد فى عامه الأول بالمرحلة الإبتدائية، ويفتقد التدليل الذى كان يحصل عليه فى الروضه من المدرسات وخاصة - حبه الأول «أبلة أمينة»، وكان يجلس بالفصل ساكناً، وتبدو على ملامحه عدم الرضا. كما بدأ يهمل فى حفظ المحفوظات. وكان يستاء من صرامة بعض المدرسين، ولا يُقبل على دُروسهم بحبٍ، ومنهم الأستاذ «عصفور». وكان يتعجب لوضعه الطربوش على رأسه مائلاً «معووج»، بخلاف

باقى المدرسين. وكان يحرك فكه السفلى كثيراً، وكأنه يقرض شيء ما. وبرغم «فرمان» منع الضرب، إلا أنه كان له أسلوبه الخاص فى عقاب المهمل دون استعمال الخيزرانه، وذلك بقرص الأذن، أو غرس أصابعه القوية فى زراع أو فخذ التلميذ بشكل مؤلم. وهذا ما تعرض له الولد لعدم حفظه المحفوظات بصورة جيدة، فما كان منه إلا الفرار بالجرى خارج من الفصل ليس- هذا فقط- بل الخروج من المدرسة أيضاً، برغم نداء «عم محمد جميعة» رئيس الفراشين عليه عده مرات.

كان يعلم أن الشكوى لوالده مما فعل عصفور أفندى لن تجدى، بل سيتهمه بالإهمال «والدلع» وينحاز للمعلم. لذا فقد أسرع فى اتجاه «المحكمة المختلطة» التى تقع فى نفس الشارع، و كثيراً ما ذهب إليها لِصحبة جَدّه فى نهاية الأسبوع لقضائها معهم. وبرغم أن المسافة بين المدرسة والمحكمة حوالى ٣٠٠ مترقطعها ركضاً دون توقف، ووصل إلى المحكمة، فلم ينتظر استعمال المصعد . الذى كان عادة ما يأخذه عامل المصعد به صعوداً وهبوطاً «للفسحة» وهو يضحك فقد كان المصعد الوحيد حينئذاك بمدينة المنصورة صعد الدرج لمكتب جده وهو يبكى، ويتنفس بصعوبة من الأرهاق، فكانت رؤية الجد له فى هذه الحالة صدمة قاسية كادت تصيبه بالإغماء ظناً منه حدوث كارثة بالمنزل، دفعت الولد بالحضور إليه على هذه الصورة. وقام المحيطون بالجد بتهدئته، حتى تمكن حفيده من الكلام ليروى لهم ما حدث. وما أن تبين الجد «الشافعى» ما أوصل حفيده لهذه الحالة، حتى جن جنونه وأخذه فوراً بالعربة الحنطور . عائداً به للمدرسة مقتحماً غرفة حضرة الناظر ثائراً صائحاً قائلاً إنت بتشغل عندك مدرسين ولا وحوش ؟ أنا عاوز أعرف مين البنى أدم إللى عمل كده فى أذن وفخذ الولد؟ فمثله لايصلح للعمل فى مهنة التدريس.

وكانت أزمة حقيقية تجمع لها المعاون «أحمد أبو ليلة» وعدد من المدرسين ليتعاونوا مع حضرة الناظر فى تهدئة «الباشا» - كما إعتادوا على تسميته - خوفاً على صحته، كما أخفوا الأستاذ عصفور عن الأنظار لحمايته من غضبة الجد، الذى قارب سن التقاعد، ويعانى من بعض الأمراض، وبين الاستغراب والضحك أحياناً والاختلاف بين مؤيد ومعارض لما حدث. هذا بخلاف اللوم

الشديد من الوالد لأن الولد ذهب لجدة بدلاً من الحضور إليه، فكان رأيه «- ما هو حضرتك دايماً بتزعقلى قدام المدرسين وتقوللى إسمع الكلام وخلاص- من غير ما تعرف أيه الحكاية!!!»، وكانت هذه الحادثة بمثابة تأييد وتثبيت لمبدأ عدم الضرب فى المدرسة، حتى تم تسليم إدارتها لإحدى الجمعيات «المتأسلمه» لإدارتها بعد تقاعد الأستاذ أحمد بدر المؤسس، «فعادت ريمة لعادتها القديمة» فأصبح لكل معلم خيزرانته الخاصة، كما تحول عقد الإدارة لعقد إستيلاء على المدرسة فى ظروف غامضة لا يعلمها إلا الله وذلك فى منتصف السبعينات بعد ثورة ٢٣ يوليو. لكن الله «يمهل ولا يهمل»

المدرسة الآن تابعة لإدارة الدولة بعد ثبوت أن الجمعية «المغتصبة لها» تتبع الجماعة الإرهابية.



صورة لفريق الأساتذة والعاملين بمدرسة الأمة عام ١٩٢٧

طعم الأحزان

كان حزن الولد لفقد صديقه «ديك البرابر» تجربة لتذوق طعم الحزن الحقيقى فى هذه السن المبكرة، رغم أن مثل هذه الأمور لايتأثر بها غيره من أقرانه، وحتى شقيقه الأصغر «سامى»، وصديقه «أنسى» مثلاً، كان معروفاً «بعدّو القطط» وكان لديه قدرة غريبة على مفاجأتها، والإمساك بها، وإلقائها فى أماكن يصعب عليها الخروج منها «كغرف التفتيش للصرف الصحى»، مما دعا والده فى واحده منها لإجباره على النزول لغرفة التفتيش لإخراج القطط التى ألقاها فيها.

وكذلك «محمد» الذى قضى عليه حبه للخيول فكان يهرب من المدرسة ليعاون أصحاب العربات «الكارو» التى تنقل القطن والغلال. فيطعم الأحصنة وينظفها متطوعاً، ومع ذلك كان يحب استعمال «الكرباج» وكان ذلك يسبب الضيق للراوى، والذى كان يرى فى الحصان أيه من أيات الجمال من مخلوقات الله.

ويوماً حين عودته من المدرسة وجد جارة «محمد» عاشق الخيول يقف فى انتظاره بشريط أزرق به «جلاجل»، وعلى وجهه علامات الحزن، وعرف فى الحال أنه يخص كلبته «صبيحة»، فأخذه فى لهفة وسأله أين هى؟ فسكت لحظة ثم أخبره بأنها سقطت من النافذه للشارع الرئيسى فماتت فى الحال، فأخذها عم «عوضين» حارس الشونة ودفنها بجوار شجرة الكافور الضخمة المواجهة للمنزل. ممسكاً بالشريط الأزرق أخذ يبحث عن «فلة» قطته البيضاء التى لم تكن فى انتظاره على غير العادة، فوجدها منطوية على نفسها، وحين رأته أسرعت بالاختباء. فاستغرب منها هذا التصرف، وجاءت زكية وعلى ملامحها حزن حقيقى، ثم الوالده فاحتضنته فى حنان وهو فى ذهول يسأل ماذا حدث، فشرحت له الوالدة أن ذكيه وضعت الألحفة، ومفروشات الأسّرة على حاجز النافذة فصعدت «فله» فوقها لتستمتع بشمس الشتاء، وجاءت

«صبيحة» لتفعل مثلها ففقدت توازنها لأنها ليس لها مخالب مثل «فلة» وسقطت فى الشارع فماتت.

ومرت الأيام التالية كئيبة والولد لايدرى ما يدور حوله، ولماذا تُحِدث «فلة» تلك الأصوات الغريبة، فلا هى مُواء وكأنها بكاء، وكان يسمع الوالدة وذكية تتحاوران، فذكية تقول إن ذلك حزناً على صبيحة والوالدة تقول لها لا إننا فى شهر «فبراير» وهو شهر تزاوج القطط وإنها كبيرة تبحث عن زوج، وما هى إلا عده أيام واختفت «فلة» أيضاً وخرجت بلا رجعة، وكان يجلس وحيداً يتسلى بملء كراساته برسم صور للقطط والكلاب والطيور.

ويبدو أن الأحزان لا تأتى فرادى، فقد تكرر خروج الوالد والوالدة لزيارة الجد شافعى، ويسمع أنه تم اسطحابه لعيادة صديق العائلة الدكتور «الجيّار»، ويعودان وعلى وجهيهما علامات القلق والحزن الشديد، ثم كانت مفاجأه أخرى فقد أحضروا الجد الحبيب للإقامة معهم بصورة دائمة لرعايته أثناء مرضه، لعدم قدرة «الحاجة» المسنة على الاهتمام به بالصورة الكافية، ومرت عدة شهور وكان يطلب فيها الجد أحياناً الخروج ليجلس بعض الوقت بفناء المدرسة، ليأخذ قسطاً من شمس الصباح، ويرى حفيده الأكبر وهو يتدرب على ركوب الدراجة، ويصفق له فرحاً لسرعة تعلمه.

وجاء الصيف دون أن تستعد الأسرة للانتقال لمصيف رأس البر كالعادة لمرض الجد، الذى أصبح يلازم الفراش ولا يغادره، وكانت الوالدة دائمة الجلوس تحت قدمى جده فى صمت، لتلبية طلباته فى همة ونشاط، وبدأت تزداد زيارات الدكتور الجيار لمتابعة حالته،

وسمع الوالدة تتحدث مع الوالد والدموع فى عينيها بأنه لم يعد يشعر بنصف جسده السفلى، فيتسلل لغرفته يدلك له ساقيه فى حنان، وجاءت لحظة الرحيل فطلب من الوالده «شربه» ماء، فلم يتمكن من تناولها، وأخذ يتمتم وقد مد إصبع يده اليمنى للأمام كما نفعل فى الصلاة، وأسرع الوالِدْ يتحسس نبض يده، ثم انهمرت الدموع من عينيه فى صمت، وأسدل جفون الجد وقبل جبينه، ثم قبل يده فى حب الولد لأبيه وليس «لحماه»، أما الوالدة فجلست على المقعد المجاور للفراش دون حراك، وجاءت ذكيه صارخة فنهرها الوالد، وأفاقت الوالدة، فقامت متثاقلة واقتربت منه وأغرقت دموعها وجهة

الناصع البياض، فقبلته، وقبلت يده، ثم أخفت وجهه بالملاءة البيضاء، وكل ذلك ولا أحد من الأولاد بالغرفة سواه، يتابع ذلك، ويشعر بأمعائه وكأنها تتمزق، وتدور برأسه الأفكار، «ماذا سيفعلون بجده؟ وهل سيوارى«التراب كما فعل عم عوضين فى صبيحه»، لا لا يمكن أن يحدث هذا، وهنا انفجر هو الأخر فى البكاء، وكشف الغطاء عن قدم جده فقبلها مودعاً،وعرف معنى الحزن الحقيقى مبكراً مبكراً جداً. وهكذا الحياة.



محمد الشافعى موسى

جد الراوى

بنين وبنات

الشقيقتان «زينب وفتحية» ، الكبرى تكبر الراوى بحوالى سبع سنوات ، أما الصغرى «توحه» كانت تكبره بخمس سنوات تقريباً ، وهذا الفارق الكبير كان سببه فقدان الأسرة لثالث بناتها بالمولد «سنية» وهى فى عامها الأول ، وعوض الله الأسرة عنها بالراوى بعد بضع سنوات. هذا الفارق فى السن بين الشقيقتين والولد الأصغر أتاح لهما أن تقوما بتوجيه النصائح والتوجيهات بل الأوامر أحياناً له وغلب هذا الأسلوب على تعاملها معه ، وسبب له ذلك ضيقاً كثيراً ، وانصرف إلى هواياته ، فازداد اهتمامه بكلبته وقطته ، ومحاولة تدريبها على بعض المهارات ، وفهم إشاراته ، والاستجابة لها ، كما كان يدفعه ذلك لإبراز تفوقه فى الرسم ليتحدى به شقيقتيه. فتضحكان ، وتتحديانه أيضاً بأشغال التريكو وتطريز المفارش بالخيوط الملونة بأشكال جميلة.

تلك المناوشات والرغبة فى إثبات الوجود «وسط الإتحاد البناتى» كان يلفت نظر الوالد والوالدة ، ويكون مدعاة للابتسام وأحياناً أخرى يستلزم التدخل لفض الاشتباك.

أما شقيقه الأصغر «سامى» فلم يكن عمره يسمح لدعم الراوى ولتكوين جبهه ذكورية توقف سيطرة الشقيقتين.

مع مرور الأيام بصوة غير محسوبة ، ظهرت علامات الأنوثة على الشقيقتين ، وبدأ الراوى فى ملاحظة إهتمام بعض شبان المنطقة بمتابعتهن فى العودة من المدرسة ، والوقوف أحياناً بالطريق فى ظل شجرة الكافور العملاقة ، مقابل نافذة غرفتهن ، أو ليلاً مدعين الإستذكار على ضوء «عمود الكهرباء» ، فبدأ يستخدم سلطانه «كولى للعهد» فينهض ويمنعهن من الوقوف بالنافذة. كما يهددهن بإخبار الوالدة عن محاولاتهما تجربة استعمال أدوات التجميل الخاصة بها فى الخفاء.أو حتى إخبار الوالد بوقوفهن بالنافذة ،

والإبتسام للشباب .

وتجرى السنون ويفاجأ بأن «الخُطاب» يتوافدون على المنزل لخطبة زينب كبرى الشقيقات بعد أن صرن ثلاثة بمولد شقيقة ثالثة وهى «ليلى».وكانت زينب قد حصلت على شهادتها المتوسطة فى التربية «وهى دراسة خاصة بالبنات» ،ودون تحقيق حلم الإلتحاق بالجامعة ، حيث كانت تستلزم حين ذاك السفر للقاهرة أو الإسكندرية لتوافر الجامعات بهما فقط ، وصعوبة قرار سفر الفتيات للجامعة دون وجود أحد من الأسرة بإحدى «العاصمتين » لرعايتهن ، ولاشك أن ذلك كان العائق الأكبر اجتماعياً قبل أن يكون مادياً.

وكان الراوى يسمع من حين لآخر مناقشات الوالد والوالدة حول زواج البنات ، والاكتفاء بما حصلن عليه بعد المرحلة الثانوية ، وكان أحد المعاهد المتوسطة المخصصة للبنات «للتدبير المنزلى».

وبدأ توافد الخطاب ، وتأكد الراوى أن شقيقته قد كبرت فعلاً وما باليد حيلة. وبدأت الأسرة تستقبل فرداً جديداً بإعتباره من أفراد الأسرة ، ورغم مسامرته ومعاملته للراوى بلطف ظاهر لكسب صداقته – إلا أن الراوى كان يرى فيه بادىء الأمر ذلك الغريب الذى جاء «لخطف» وليس ليخطب شقيقته الكبرى.

ورغم أن عقد القرآن قد تم فعلاً ، وكما أفهمه الوالد أنها أصبحت زوجته شرعاً فقد كان إنفرادهما بغرفة الجلوس يثير فى نفسه شيئاً من الضيق ، كان يفسره الكبار بأنه «الغيرة». وكانت تظهر فى كثرة ندائه عليها بسبب أو بغير سبب ، فمرة يناديها ياأبلة زوزو فين المقص ؟ أو يا أبلة زوزو سمعي لى المحفوظات ، وما إلى ذلك من التصرفات الصبيانية لشغلها عَنْ عريسها وكانت هذه المحاولات تقابل أحياناً بالابتسامة ، وكثيراً بالضحك ، وقليلاً بالتأفف والضيف .

وتمر الأيام والشهور سريعاً ، ويأتى اليوم الموعود ، ويجد نفسه مشاركاً فى استعدادات العرس «الفرح» تمهيداً لانتقال الشقيقة الكبرى لمنزل خاص بها ، ليعيش هو تجربة جديدة من التجارب الإنسانية التى لاتنسى .



زينب وفتحية بجوار الوالد فى مرحلة الطفولة

الخروج من الذكريات الحزينة

الإنسان هو الإنسان، أما المكان هذه المرة هو موقع مدرسة الأمة «الحرة» بشارع المختلط، نسبة لوجود المحكمة المختلطة بنفس الشارع. وكانت الأرض التى أقيمت عليها المدرسة ملك إحدى شركات التأمين، وأقامت عليها بعض المبانى على مراحل، كان منها فى البداية مجموعة من المحلات على الشارع الجانبى الذى يفصلها عن مدرسة «العائلة المقدسة» من الناحية الجنوبية. وهناك شارع أخر يفصلها عن المدرسة الإبتدائية «الأميرية» أى الحكومية، ويؤدى فى نهايته لشارع سمى «بعزبة يونس» وأتيحت الفرصة للأستاذ أحمد بدر لإستئجار باقى المساحة، وقام بإنشاء العديد من المبانى، لتتحول إلى فصول دراسية، وخاصة مبانى الجزء البحرى، فأضاف له دوراً ثانياً فوق الأرضى. من ثمانية فصول، وأقام على مراحل باقى الفصول فى الناحية الشرقية، واثنين من الناحية الغربية، وفصلين فى المبانى القديمة، فأصبح إجمالى عدد الفصول ستة عشر فصلاً، بالإضافة إلى غرف الإدارة، غرفة الناظر والسكرتارية، وغرف المدرسين، وغرفة معمل الكيمياء، والمدرج، ومساحات كافية للملاعب وكذلك غرفة كبيرة للرسم والأشغال اليدوية.

وتم تخصيص الدور العلوي للمرحلة الثانوية، والسفلى للإبتدائية والإدارة والإنشطة الفنية والرياضة، كما تم شراء حافلة «أتوبيس» لنقل التلاميذ، لم يثبت الإقبال عليها جدواه لصغر المدينة، فتم بيعها بعد عامين دراسيين.

وقد تعمد الراوى هذا التفصيل الذى قد يرى البعض أنه لا ضرورة له حتى يتبين القارئ العزيز حجم الإصرار والمعاناه التى واجهها رواد التعليم الحر لنشر التعليم فى مصر، برغم إمكانياتهم المالية المحدودة، بداية من (الخوجة) معلم الكتاب بالقرية حيث كان أجره متواضعاً جداً ربما يكون فى صورة مساعدات عينية من خبز وبيض ودجاج أحياناً أو فى شكل مساعدات لإقامة مكان أفضل لتقديم خدماته للأبناء.

أما الرواد بالمدن فكان الأمر يختلف، فالعديد منهم ضحى بما ورثه عن جدوده، أو اعتمد على مساعدات الأسرة والمقربين من الأصدقاء ليقدم هذه الرسالة بصورة مقبولة لأبناء المصريين، وكان من الصعوبه بمكان لضعف الامكانيات، وإنعدام الدعم الحكومى تقريباً ـ أن يصل مستوى الخدمة المقدمة لما كانت تقدمه المدارس والإرساليات الأجنبية للأجانب وأبناء الطبقة الأرستقراطية ،وفوق المتوسطة ولكن ذلك لم يقف حائلاً عن توفيرها العديد من الكفاءات المثقفة، التى أثرت مصر بإنتاجها الفكرى والأدبى، وأصبحت علامات بارزة فى التاريخ الثقافى والسياسى والإعلامى فى مصر والخارج.

ونعود مرة أخرى لوصف المكان، فقد كان جزء من المبانى القديمة فى الناحية الجنوبية به عدد من المحلات المؤجرة، كمكتبة لصاحبها «غبّور» وخدمات أخرى، ويعلوها دور سكنى فسيح بمدخل خاص كان يستأجرة أحد كبار الموظفين، - ربما كان من موظفى الرى أو إحدى الشركات الأجنبية- ، ونقل للعمل بالقاهرة، فكانت من نصيب أسرة حضرة الناظر، فأستأجرها، وسعدت بها الأسرة أيما سعادة لوجودها ضمن مبانى المدرسة. وكانت فرحة الرواى أكبر للخروج من مكان يذكره بفقد جده العزيز الغالى، وكذلك فقده لأصدقائه من الطيور والحيوانات الأليفة. ومن حسن حظه أن السكن الجديد كان زاخراً بأماكن تيسر اقتناء أصدقاء جدد من الحيوانات الأليفة ليس هذا فقط، بل كان هناك «برج حمام» أسسه الساكن السابق، فبدأ هو بالعناية به وتطويره بشراء أنواع جديدة من الحمام، بخلاف ما به من «حمام بلدى» يخصص إنتاجه للطعام، فجاء بأنواع نادرة كالهزاز والزاجل، وخصص لها برجاً خشبياً خاصاً، وبدأت علاقته بتلك الطيور الرائعة تتوطد، فتطير إليه مجرد رؤيته مرحبه به أو ربما مرحبه بما يقدمه من طعام وكان يشعر بسعادة غامرة عندما تقف بعض الحمائم على كتفيه وزراعه لتلطقت من كفيه الحَب والحُب، وهو يمسح على ريشها بحنان تشعر به بغريزتها، فتبقى ساكنه دون أن تنفر أو تطير منزعجة. وكان يستعرض هذه المهارات أحياناً ليلفت نظر طالبات القسم الداخلى بمدرسة العائلة المقدسة المجاورة، وكن يعجبن بهذه العلاقة الحميمة بينه وبين طيورة برغم استياء الراهبات.

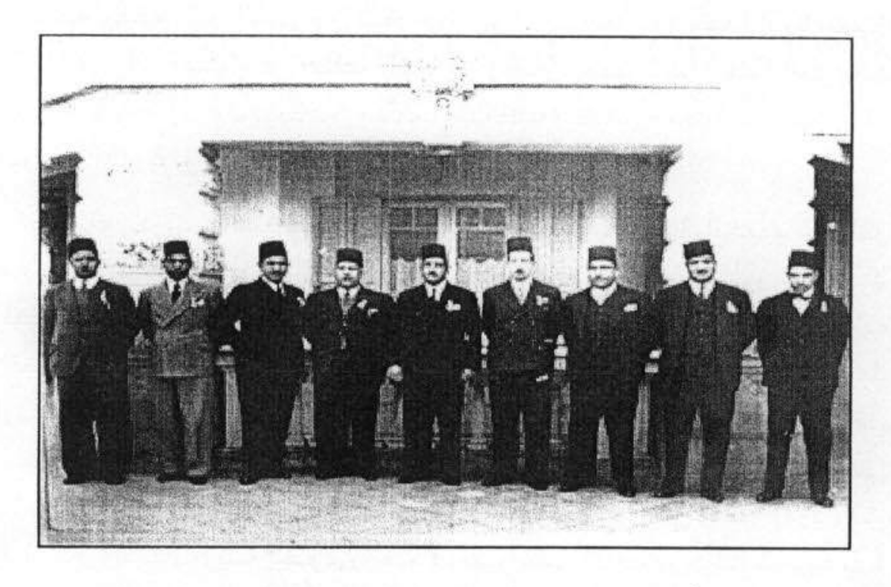
وكان لا يسمح لأحد بمشاركته، حتى مهمة نظافة البرجين وتجديد المياه من خادمات الأسرة أو فراشى المدرسة إلا لقله منهم يشاركونه حب هذه المخلوقات الرائعة ولا ينظرون إليها كوجبة شهية بجوار صحن « ملوخية خضراء»- وكان من بين الحمائم زوج من الحمام «الهزاز» الأبيض بذيلها المروحى، وبصدرها النافر للأمام بكبرياء، لا تطيق الابتعاد عن صاحبها، فتترك السطح وتهبط لمشاركته غرفة نومه برغم اعتراض السيدة الوالدة، ومطالبته بحزم بحبسهما بالبرج إذا لزم الأمر، لمنع بقائها بالمنزل. لضمان النظافة وعدم نقل الأمراض فكان يجادل مدافعاً، مؤكداً أنها تتميز بالنظافة، وأنه مسئول عن نظافة المكان، وكان يحمد الله أن هذا النوع من الحمام لايؤكل، ولن يكون مطمعاً «للذكية» كما حدث لصديقة «ديك البرابر» الذى غدر به فى المسكن السابق.

كان من دواعى السعادة لصاحبنا المساحة الكبيرة للمنزل الجديد، وتوافر غرف عديدة للخدمات والخزين وتربية أنواع أخرى من الطيور، بإمتداد المكان فى الاتجاه الشرقى المطل على أرض فسيحة مخصصة لتشوين بالات القطن لأحد المحالج، التى تعتبر من علامات المنصورة لضرورة وجودها وسط زراعة القطن، الذى تشتهر بها محافظة الدقهلية، وكعادة الراوى فكر فى استغلال تلك المساحة الكبيرة فى تجميل المكان، وتذكر «البرجولة» التى كان يعشقها بمنزل «جده الشافعى»، وما يوجد بها من زهور وورد وفل وياسمين ونباتات زينه أخرى رائعة. فأصر على إقامة برجولة شبيهة بها واستجاب الوالد لطلبه فهو يعشق الجمال أيضاً ـ فأقيمت البرجوله طبقاً لرسم كروكى أعده صاحبنا تحت إشراف الوالد، وسُلِم للنجار لتنفيذه، ثم لجأ « لعم محمد جميعة» وهو كبير الفراشين بالمدرسة ـ « وهو فلاح أصيل من قرية سنجيد» وعلى دراية بفنون الزراعة فتولى إحضار الشتلات، والإصيص المناسب لكل نوع منها، وخاصة النباتات المتسلقة كاللوف، للتحول لمظلة تعلو البرجولة، واستعمال ثماره عند النضج «كلوف الأستحمام».

ليس هذا فحسب بل أحضر مجموعة من نباتات الصّبار المشهورة بزهراتها رائعة الألوان، والتى منحته فرصة منافسة بعض أصدقائه وزملائه المقيمين بفيلات حى «توريل» التى تمتاز بحدائقها المنسقة الجميلة، ويتساءل الراوى فى

حسرة هل مازال حب الجمال من صفاتنا كمصريين؟ أم فقدنا الإحساس به نتيجة الجهل، وتفشى الفقر، ووباء العشوائيات الذى انتقل من مواصفات المكان إلى طباع الإنسان؟!!

ياليتنا نتذكر دائماً أن الله جميل يحب الجمال، وأن الإسلام دين السلام والنظافة والتزين عند كل صلاة وسبحان مغير الأحوال!!.



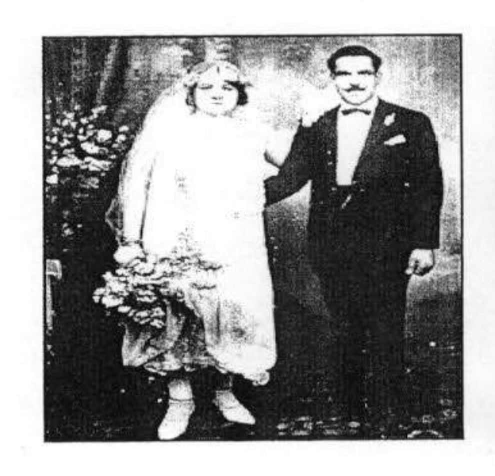
أصحاب المدارس الحرة بقصر عابدين للتهنئة



أصحاب المدارس الحرة



أستاذ أحمد بدر فى قصر عابدين للتهنئة



زفاف الأستاذ أحمد بدر ١٩٢٢

الزفاف الأول

الأيام تمر سريعاً وتصبح أعواما ، وتتغير صوّر الإنسان والمكان، فهذه هى لعبة الزمان!! لم ينتبه الراوى للسرعة التى تكبر وتنضجُ بها شقيقاته، وخاصة الكبرى إلا بعد ملاحظته توافد الخطاب طالبين مصاهرة «حضرة الناظر»، وكان البعض من الأقارب، وبصرف النظر عن مناسبتهم للاقتران منها، كان جوابه دائماً الرفض، لرفضه مبدأ «تزاوج الأقارب» لأسباب صحيه و وراثية أولاً، وثانياً لقناعته بأن الزواج لايخلو أبداً من الخلافات لاختلاف الطباع و الأذواق وهذه الخلافات قد تستغل بتدخلات أخرين من الأسرة، فتفرق بين الأهل والأحبّه،وأصبح رأيه معمولاً به فى جميع فروع العائلة الكبيرة، ونتج عنه نوع من التأخى الحقيقى بين شابات وشباب الأسرة فلم يعد أى منهم يترك لعواطفه العنان لتتجاوز الشعور بالود والأخوة، فيتواصل دون حساسية،ويتعاون دون تكلف، فأصبح من لايعرف العائلة الكبيرة فى حيرة مَنْ شقيق مَنْ؟ ومن شقيقة مَنْ؟ وينتج عن ذلك بعض المواقف المضحكة عندما يلاحظ احدهم أن هناك إختلافاً فى اللقب فيحسبهم أخوة غير أشقاء وما إلى ذلك.

وصدقت مقولة (إبنك على ما تربيه) ومن هنا يتضح أن العُرف الأسرى مع استمراره يصبح له قوة القانون، وعكس ما تقدم نلاحظه فى المجتمع القبلى، حيث ابنه العم حق ابن عمها ولا يجوز لها الزواج من أخر إلا برضاه وموافقته.

لذلك بارك جميع أفراد الأسرة الكبيرة خطبة زينب للمحاسب شاكر شاهين، وبدأ الاستعداد لزفاف الابنه الكبرى،وشهدت الأسرة نشاطاً غير معتاد للمساهمة بالجهد لمعاونة «أم العروسة» فى إعداد أو شراء الملابس، أو أثاث بيت الزوجية، وكان للعمه «أم محمود» جهد متميز لخبرة ابنها الأكبر محمود فى إختيار أو تصنيع أفضل أثاث بأفضل الأسعار.

ثم جاء موعد الزفاف، ودار الجدل أين يتم ذلك؟، فالعرف يلزم أسرة العريس بإقامه العرس بمنزله أو بقريته، ومعنى هذا أن ينتقل عدد كبير

للسفر لقرية «ديرين»، وهو أمر فيه الكثير من المشقة، وخاصة لكبار السن، ولا يتوفر بالقرية الأمكانيات لاستيعاب مثل هذا العدد، فكان من الطبيعى أن يتم حفل الزفاف بالمنصورة، وعزز ذلك وجود سكن العروسين بالمدينة. ولكن أين يقام؟ وليس هناك صالات لمثل تلك للأحتفالات كما هو الحال حالياً، بل يتم ذلك فوق الأسطح أو «بإعداد صوان» خاص يختار له مكان مناسب لليلة العرس.

فوقع الاختيار من سيدات الأسرة على «فناء المدرسة»، وخاصة أن موعد الزفاف كان صيفاً فى وقت الإجازة السنوية. ولكن قوبل هذا الرأى برفض الوالد، فليست المدرسة بالمكان المناسب لاستقبال «العوالم»، وصدور أصوات الطبول والزغاريد، لكن هذا الرفض لم يصمد طويلاً أمام ضغوط الأكثرية النسائية فوافق على مَضَض، بشرط إختيار فرقه منتقاه لتقديم غناء محترم!!؟ فأخذت إثنَتان من سيدات الأسرة على عاتقهن الاهتمام بالأمر.

وفوجئ الراوى بواحده من العمات والوالدة يطلبن منه مرافقتهن فى «مشوار» يبدو أن له أهميه خاصة، فيلزم أى يكون معهم «راجل»، فأخذه الغرور، ووافق على الفور، وجاء «عبد الكافى» بعربته الحنطور واصطحب الجميع إلى منطقة لم يدخلها الراوى من قبل، وإن كانت ضمن الجزء العتيق من المدينة، وليس بعيداً عن منطقة «الحوار» التى نشأ بها، وتوقفت العربة أمام منزل كبير عتيق يشبه إلى حد ما بيوت حارتهم، وإن كان يتميز بباب أضخم، مساحة أكبر، وقبل طرق الباب، قامت بفتحه «شابه جميلة كاملة الزينة» بألوان صارخه مرحبه بحرارة بالضيوف، وقائلة «الحاجة فى انتظاركم –اتفضلوا».

دلف الجميع إلى قاعة كبيرة مليئة بالأثاث الشعبى، وفى الصدر كنبة كبيرة تجلس عليها الحاجة، فقامت بشئ من الصعوبة لتستقبل الضيوف مرحبة بحرارة، موجهة كلامها للهانم (معقول تيجى بنفسك – دنتى تؤمرى وأنا أجيلك على عينى)، وبعد تبادل المجاملات وتناول «الشربات» بدأ الاتفاق على تفاصيل حفل الزفاف وبدأ الراوى يتبين أين هو – من مجرى الحديث ونوع المقيمين بالمنزل – فهذا الأسطى عيّاش عازف القانون، وهذه زوجته «كروانه» مطربة الفرقة، وهذا أستاذ الأيقاع وأشهر حامل للطبلة بالمنصورة «كراوية»

وزوجته الراقصة الشهيرة – التى لا يتذكر اسمها – وكل من بالمنزل من رجال ونساء أسرة واحدة بقيادة «كبيرة العيلة» الحاجة «حميدة زيتون» وهى عازفة للعود، ومطربة «قديمة فى الكار» وصاحبة «مدرسة خاصة» فى الرقص الشرقى، تخرج مِنها مجموعة غير قليلة من أشهر الراقصات بالوسط الفنى ، كسهير زكى ونعمت مختار، وكانت هدية الحاجة حميدة لأسرتنا بأن سمحت للراقصة الناشئة التى مازالت صبية صغيرة بالرقص «ببدله الرقص» لأول مرة بعرس زينب، وتم ذلك فعلاً رغم عدم ارتياح الوالد، فضحكت الحاجة حميدة قائلة له (طول بالك يا حاج بكرة دى حتبقى أشهر رقاصة فى مصر).- وقد كان- وبإشارة خفيه منها انطلقت الصبيه فى اتجاه الحاج فقبلته قبلة خاطفة وسط تهليل جموع الحضور من الأسرتين، وصاح الحاج «إمشى يا بنت» رافعاً يده مهدداً لها وعلى وجهة ابتسامة المستسلم لرغبات وألاعيب الحضور والعوالم». ولم يفق الراوى إلا وهو فى فراشه صباح اليوم التالى على صوت المهنئين، والاستعدادات لزيارة العروسين مع اصطحاب هدايا وطعام الصبحية.



الجار قبل الدار

«الجار قبل الدار» حِكْمة فى مَثَل من أَمثالنا الشعبية يصلح لكل زمان ومكان، وكما ينطبق على السكنىْ والأحياء يتطبق أيضاً على الدول والشعوب، لو صدقت النوايا، وزالت الأطماع الدنيوية الدونية التى تحول الجيرة من أخوّة وسند إلى شقاق وكَبدْ. وكان الراوى بفطرته يعى تلك الحكمة، ويسعى دائماً لخلق المودة والتقارب مع جيرانه كباراً و صغاراً.

وحين انتقلت الأسرة إلى المسكن الملحق بمدرسة الوالد، نظر حوله فلم يجد مساكن أخرى، فمن الناحية البحرية كانت المدرسة الإبتدائية «الأميرية» الحكومية، ومن الناحية الجنوبية مدرسة الراهبات «العائلة المقدسة للبنات»، ومن الجانب الشرقى أحد محالج القطن، وتفصله عنهم مساحة كبيرة لتخزين بالات القطن أما الجهة الغربية فهى امتداد لمحطة السكة الحديدية ويفصل بينهما شارع «المحكمة المختلطة» وبه نفق أسفل مسارات القطارات.

وفى بداية الأمر رأى الراوى أنه قد عُزل عن أى جيران يمكن التواصل معهم، ولكن سرعان مازال هذا القلق، وعوضه إقبال وتواجد العديد من أقرانه للاجتماع والتدريب بملاعب المدرسة، وأهمها ملعب كرة السلة والكرة الطائرة، وتوافر أجهزة ألعاب القوى، كالعقلة والمتوازين ورنخ الملاكمة وبساط المصارعة، فبدأ يختلط بأقرانه، وحتى الأكبر منه سناً، ويشجع كل منهم الأخر للتدريب بهدف إجادة اللعبة التى يهواها كل منهم، ونشأت فى هذا المناخ العديد من الصداقات، وكان بعضها من جيران فى السكن السابق بمبانى الشناوى، ولم يعد يشكوا من الوحدة، بل على العكس أصبح التنسيق لإرضاء عدد غير قليل منهم يحتاج لشيئ من «الدبلوماسية» واللياقة، حتى لا يغضب البعض لإرضاء البعض الأخر خاصة أصدقاء وزملاء نادى هواه الموسيقى والتمثيل.

كما كان لصداقات شقيقاته الأكبر منه ميزه كبيرة «لعدم خلو المنزل من الجنس اللطيف»، ومجهود التدريبات الرياضية، وصياح المتدربين ليحل محلها ضحكات ناعمة تلطف جو المنزل، وتساعد على التقاط الأنفاس، وإن كان بعضهن انتقلت إليهن عدوى الرغبة فى ممارسة الرياضة، فيجتمعن للعب كرة السلة بعد انصراف التلاميذ، وكان يتاح ذلك لهن فى الإجازة الصيفية بصورة أكبر.

أحياناً تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن « كان لوالد الراوى أحد الأصدقاء وكان صاحب صيدلية معروفة بشارع السكة الجديدة وهو «الدكتور خميس» ويجمع بينهما هواية جمع المراجع القديمة والمخطوطات وكان يعاونهم فى ذلك صاحب «مكتبة المغربى» - المتخصصة فى بيع الكتب القديمة وخاصة المراجع الدينية -فجمع بينهما رغبة التفقه فى الدين مع إختلاف الرؤى فحضرة الناظر كان من رعاة جمعية أنصار السنة، أما الدكتور خميس فكان من الكوادر الهامة فى جماعة الإخوان المسلمين، ومن خلال الصداقة التى تجمع بينهما لم يتوقف عن محاولة استقطاب حضرة الناظر للانضمام لجماعة الإخوان، ولما فشلت محاولاته على الرغم من كثرة الوعود، طلب منه كصديقٍ -مستغلاً طيبتهِ وحُبّه للمشاركة فى كل ما يرتقى بالشباب علْمياً وجُسمانياً - أن يسمح لشباب الإخوان المسلمين بالإستفادة فى الإجازة الصيفية فى استخدامِ ملاعب المدرسة لممارسة النشاط الرياضى تحت إشراف المدربين بالجماعة، فقبِل دون استشارة أحد وخاصة «الهانم» ناسيا أن الواجهة البحرية للمنزل مطلة على الملاعب، كما لم يأخذ رأى المعاون « أحمد أبو ليلة» باعتباره المشرف على الرياضة، والمسئول عن صيانة الأجهزة والملاعب والحفاظ على سلامتها.

ودون سرد التفاصيل فلا شك أنها كانت أسوأ إجازة صيف، وعانت الأسرة فيها ما عانت من الضوضاء والروائح، وتضاعفت مهام النظافة لعم محمد جميعة ومعاونيه، والتضيق على أسرته التى اعتادت قضاء اجازة الصيف معه بالمدرسة (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) فلعل تلك الفترة كانت كفترة تحصينٍ للراوى من فكر الإخوان المسلمين طوال حياته، وخاصة فى فترة الجامعة بدأً من عام ١٩٥٢م حيث كانت المنافسة السياسية

شديدة بالجامعات بين الإخوان المسلمين والشيوعَيين من جهة، وبينهم من جهة أخرى وبين الأحزاب القديمة كالوفد والسعديين والأحرار الدستوريين مجتمعين فيما كان يسمى «بالجبهه المتحدة» فيما عدا حزب ناشئ سُمِى «حزب مصر الفتاة».

وقد كان من الطبيعى حضور الراوى بعض التمارين مع شباب الإخوان باعتبارهم «ضيوفه»، وكان يستمع معهم لأحاديث الموجهين بما كانت تتضمنه من ترغيب ساعة وترهيب ساعات، واللعب على الدين، وأن مستقبلهم مرتبط بالجماعة برابطة لانفصام لها علمياً وتنظيمياً ومادياً، وأن واجبهم السمع والطاعة فالكبار أقدر منهم على التفكير وتقدير المواقف، وإتخاذ القرارات، وعلى الصغار تنفيذ الأوامر باعتباره أمر إلهى (فالطاعة لله وللرسول وأولى الأمر منكم). ورغم ارتياح الراوى لبعض هذه «التلقينات» إلا أنه كان ينفر مما تتسم به من غلظة فى معظم الأحيان، وتحريم الكثير من هوايته كالرسم والموسيقى، وكان كافياً بمجرد سماعه أنها حرام أن ينفر منهم، ويبتعد عن جلساتهم أو حتى مشاركتهم فى ألعابهم.

وفى ليلة مقمرة عاد الوالد للمنزل فى حالة غضب عارمة أقلقت الجميع وخاصة الهانم، فأسرعت لتعلم ما به فصاح (أنا نظرتى ما تخيبش أبداً دول صنيعة الإنجليز) فهَدأت من روعة، وتابع قائلاً «أنا طرتهم من المدرسة، وممنوع أى حد منهم يدخل المدرسة تانى». وشعر الراوى بإرتياح رغم قلقه على الوالد، فقد كان وجودهم يسبب إزعاجاً للجميع أما الراوى فكان وجودهم يمثل كابوساً وحرماناً من الكثير مما يحب، فالرسم حرام، والموسيقى حرام، والحديث أو مصافحة البنات حرام، حتى بنات العائلة من بنات العم أو العمات رغم أنه يراهّنّ شقيقات بكل معنى الكلمة. وتتنفس الأسرة الصعداء.

ولكن الراوى عادت له «صفات الولد كثير الأسئلة،» فانتهز فرصة السير منفرداً مع والده بفناء المدرسة ليتابع عملية النظافة، وإعادة الأمور لما كانت عليه قبل طرد الجماعة، فسأله عن كلمة لم يفهم معناها يوم عصبية الوالد العارمة، وهى (صَنيعة)، وما كان يعنى«بصنيعة الأنجليز»، فبدأ يشرح له باهتمام أن الإستعمار كان يعتمد على بعض القواعد والنظريات غير الشريفة للسيطرة على الشعوب المسُتَعمَرة، وأهمها قاعدة «فَرِقْ تِسُد» وأن الإنجليز

أصابهم الجنون عند قيام ثورة ١٩١٩ ،ورؤيتهم «للهلال مع الصليب» ، والقساوسة يدًا بيد مع علماء الأزهر ، والنساء مع الرجال، فكان من الطبيعى - بما جُبلوا عليه - إعداد الخطط والمؤامرات بفكرهم الاستعمارى البغيض أن يزرعوا بذور التطرف فى طائفتى المجتمع القبطية المسيحية والقبطية المسلمة ، ووجدوا ضالتهم فى أحد الدعاه بمدينة الإسماعيلية الذى التف حوله عدد من المريدين، فأسرعوا فى دعم دعوته بوسائلهم التى لا تخفى على أحد ، وخاصة الأمور التنظيمية التى تكفل للجماعة التوسع والاستمرار ، وتنشغل بها السلطة الوطنية ، فتخف المطالبة بالاستقلال ورحيل المستعمر ،وفهم الراوى ما تعنيه كلمة « صنيعة» أى عملاء من صناعة المستعمر البريطانى، فعاد الراوى للمنزل ليشرح لشقيقاته معنى كلمة صنيعة وهن يقاطعنه دون أن يتوقف والوالدة تستمع للحوار مبتسمه ، ثم قالت (أصبر على الجار السوّ ، ليرحل يا تجيله داهيه تاخده) فأسرع إليها ليجلس بجوارها مستفسراً عمّا يعنيه هذا المثل؟؟

ولكن الجار «السو» بما جُبِل عليه من استغلال الأخرين، ونهب حقوقهم بقيت أطماعه كامنة مراقباً لأحوال المدرسة ،ليس للاستفادة من ملاعبها فقط بل للاستحواذ عليها بالكامل، مستغلاً ما أصاب مالكها من هِرمْ ورحيل المعاون ابن شقيقتة «أحمد أبو ليلة». فعاودوا محاولاتهم مع مؤسسها الأستاذ أحمد بدر بهدف «أخونتها» مرة بعرض مساهمتهم فى إدارتها ، ومرة أخرى بدعوى المشاركة بتمويلها ، منتهزين فرصة أن إبنه الأكبر يعمل خارج البلاد ، وكذلك وفاة الهانم «حصن الأمان»!! وما هى إلا عِدّة شهور وفوجئ الراوى بتحويل اسم المدرسة من مدرسة الأمة – الذى عرفت به على مدى قرابه خمسة عقود – إلى «المدرسة الإسلامية المحمدية» وتم الاستيلاء على كل ما بها ومن فيها.

انتقل صاحبها ليقيم مع ابنه الثانى «سامى بدر» فكانت فرصتهم الثانية للاستيلاء أيضاً على منزل الأسرة الملحق بالمدرسة وتحويله لفصول لمرحلة الحضانة وذلك بنقل البوابة الرئيسية للمدرسة للخارج ليصبح مدخل المنزل ضمن حدود المدرسة.

وبرغم المحاولات العديدة لبعض أفراد الأسرة للتعرف على المستندات التى قدمتها الجماعة لمديرية التربية والتعليم لتقنين أوضاعهم باعتبارهم أصحاب

المدرسة، وتعديل اسمها، إلا أنهم لم ينجحوا، ولم يجدوا تعاوناً من الإدارة التعليمية!! وهو أمر متوقع فرجالهم وخلياهم النائمة زادت وأصبحت فى كل مكان بما يطلق عليه حالياً بالدولة العميقة.

الله «يمهل ولا يهمل» تحولت المدرسة بعد ثورة ٣٠ يونيو إلى إدارة الدولة باعتبارها من مؤسسات الجماعة الإرهابية ونحمد الله على ذلك.



كعك العيد

سبب انتقال الأسرة من حارة بدر بالحوار إلى أحد الأحياء الجديدة بالمنصورة بعض القلق للراوى، لما يترتب عليه من ابتعاد عن الأصدقاء والأقارب من ناحية، وكذلك تعديلات أخرى يفرضها ما يتوافر من وسائل معيشية فى المكان الجديد، كتواجد مكان للعب، أو ممارسة الهوايات، وكذلك الوسائل المعيشية كإعداد الخبز الطازج، وطواجن الفرن المتنوعة، وكعك العيد، وما إلى ذلك. فزال القلق حين تبين أن كل ذلك متوافر فى السكن الجديد، سواء مبانى الشناوى، أو السكن الملحق بمبانى المدرسة.

وحتى الصداقات زادت وتنوعت بنماذج أخرى من الجيران. فأصبح يسعد بصديقات شقيقاته وترددهن كثيراً على المنزل الجديد، فكان يستعرض أمامهن مهاراته فى الرياضة، وهواياته كالرسم ونحت التماثيل بالصلصال، وخاصة أصغرهن «أمال» ذات الشعر «الكستنائى» البنى المائل للصفرة - وبشرتها البيضاء، ورشاقتها اللافته للأنظار، فكان يتمنى أن تقف أمامه ليرسمها، ولكن رقابة الأسرة لم تسمح له بذلك، وإن كان التقارب «والاستلطاف» بينهما كان واضحاً للجميع، وموضع تعليقات ضاحكة عندما يندمجان معاً فى سماع الموسيقى، أو الأطلاع على رسوماته، ويدور الحوار بينهما دون الإحساس بالمحيطين بهما أو مشاركتهم فى الحديث.كانت «محاسن » الشقيقة الكبرى «لأمال» يبدو عليها الارتياح لهذا الانسجام وعدم الإحساس بالوقت مما يتّح لها قضاء وقت أطول مع شقيقاته الأكبر «زينب وفتحية» دون أن تستعجل أمال العودة للمنزل، فبينهن أحاديث ذات شجون أيضاً كعادة البنات، ولم يكن الراوى يهتم بها فلديه ما يشغله هو الأخر!!

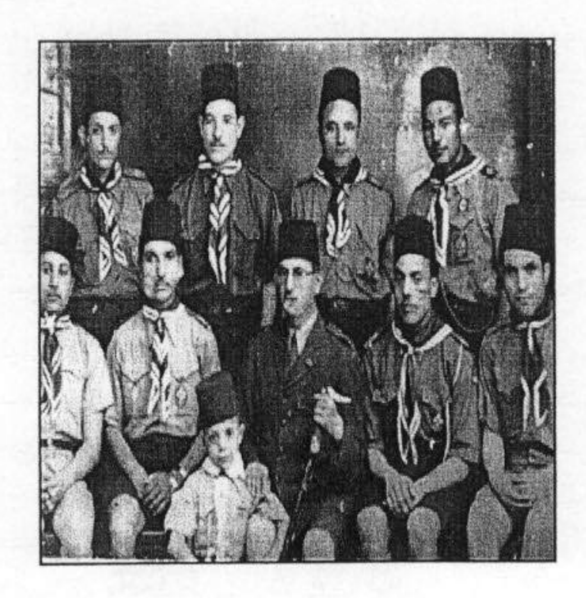
ومن أجمل الذكريات ليالى شهر رمضان المبارك، وكثرة الضيوف وتعدد أصناف الطعام. وكان الراوى يصر على أن يتولى إعداد القطايف وحشوها «بالمكسرات» والقرفة أو الكريمة، وأحياناً إعداد صوانى الكنافة رغم ما

يوجّه له من نقد لتقليله كميه «السمن البلدى طبعا» ممايفقدها شرقيتها ودلاله الكرم.

أما جلسات إعداد كعك العيد فكانت جلسات عمل لها قواعدها الصارمة تحت إشراف الهانم «أم عبده» وقائدة الفريق «أم إبراهيم» التى نشأ الراوى ليجدها وسط الأسرة بصورة شبه دائمة، فكان يعتقد فى صغره أنها إحدى أفرد الأسرة، وليست زوجة «عم محمد جميعة» رئيس الفراشين.

أما عمل «البتى فور» فكان له مُبدعَته الصغيرة وهى«أمال» صديقه الراوى لأنه يتطلب شيئاً من الفن فى إعداده بأشكال جميلة ومتعددة.وبالتجربة اكتشف الجميع أن «أمال» بيديها الرقيقتين ولمساتها الفنية هى الأقدر على إبداع وإخراج أشكال متعددة من «البيتى فور» تحوز إعجاب الجميع وإطراء الضيوف، وكان الراوى يتحين تلك المناسبة للجلوس بجوارها لمناقشة الأشكال الجديدة، والخلط بين الأبيض والبنى من العجينة المخلوطة «بالكاكاو»، فكانت الجلسة تتسم بالمتعة البريئة فى إطار من روحانيات الشهر الكريم. وأظن أن حنين الراوى لهذه الجلسات العائلية يشاركه فيه الكثيرون فى عصر «الهوم ديلفيرى» والحلوى الجاهزة وأسعارها الملتهبة و«أه يا زمن»..

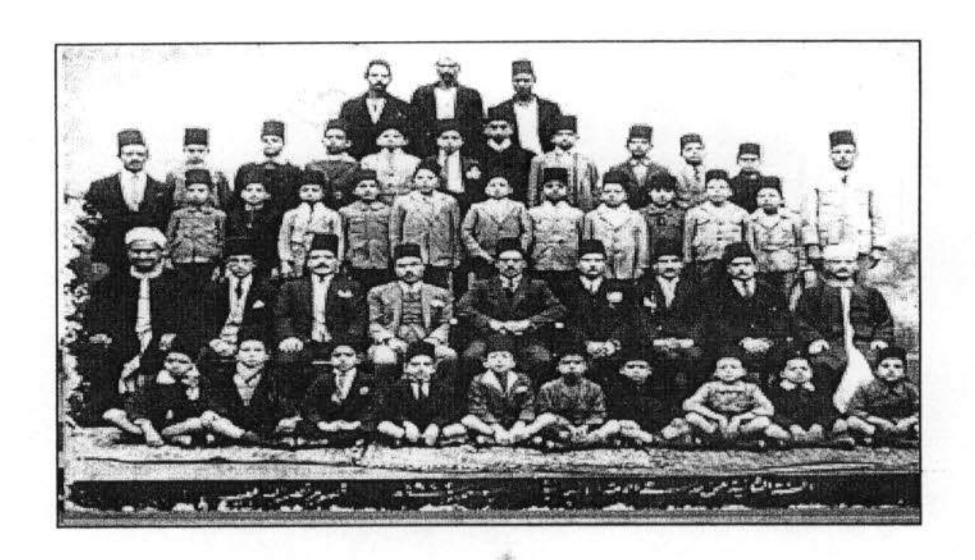




النشاط الكشفى بالمنصورة



حضرة الناظر بمكتبه







كان وأخواتها

رحم الله الشيخ عيد «معلم الدين واللغة العربية»، فى السنة الرابعة الإبتدائية ، وكان ذلك بمدرسة الأمة عام ١٩٤٦، وهى سنة حصول الراوى على الشهادة الإبتدائية - مع نهاية الحرب العالمية الثانية. وبرغم مرور السنين الطوال ، مازالت صورة شجرة «كان وأخواتها» التى كان يرسمها الأستاذ عيد على السبورة ، ويكتب بخطه الجميل الرائع أسماء أخوات كان داخل أوراق شجرة مورقة، كوسيلة إيضاح من ابتكاره، ويكرر رسم شجرة أخرى بصورة مختلفة يكتب على أوراقها «إن وأخواتها»، لتظل الصورة محفورة فى عقول تلاميذه كالنقش على الحجر !!

أما «المحفوظات»، سواء كانت من آيات القران الكريم أو أبيات الشعر ، فكان يؤديها بصوته الرخيم وبإلقائه المتمكن، ويطلب فى عدد من التلاميذ تكرارها خلفه، مع تجويد الآيات القرآنية، وبأسلوب خطابى لأبيات الشعر أو الأناشيد . وينادى على أحدنا ليكتب على السبورة مايطلب منه بخط جميل!! ومن منا يتلو أيات القرآن الكريم بتجويد ألفاظه بصورة صحيحة ؟ ينال المديح وتصفيق الزملاء، وأيهم يشرح لزملائه ماذا تفعل كان فى الاسم وماذا تفعل فى الخبر، وعلى نهجها تسير أخواتها ،ويتم ذلك بإعطاء أمثلة بجُمل صحيحة .

هكذا كانت وسائل التعليم على بساطتها ، تجعل من «الحصة» عملاً جماعياً ومنافسة محمودة، ترسخ فى عقول التلاميذ ما تعلموه ، وتمنحهم القدرة على التعبير بأسلوب كل منهم، دون الاعتماد على الحفظ وتكرار مايسمعونه كأنه تسجيل صوتى دون فهم .

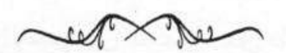
والأمانة تستلزم أن أشير إلى الشيخ عيد كحالة سابقة لعصرها، حيث كان المعتاد هو التلقين «والصم» أى الحفظ عن ظهر قلب، والفهم والقدرة على التعبير قد تأتى أو لا تأتى بعد ذلك. وأظننا مازلنا نعانى حتى الآن من تلك الآفة فى العديد من مدارسنا .

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ عيد «رحمه الله رحمة واسعة» لم يحمل فى يده أبداً الخيرزانه التى كانت تبدو وكأنها جزء من الزى الرسمى للمعلم.فكان من أوائل من طبق مبدأ منع العقاب بالضرب كتعليمات صاحب وناظر المدرسة الأستاذ أحمد بدر «رحمه الله وجزاه الله بكل خير عمّا بذله من جهد وتضحيات،والمساهمة بكل جهد مستطاع لنشر التعليم للعامة فى زمن الاستعمار البغيض [الذى كان يرى أن السيطرة على الشعوب الجاهلة أيسر من الشعوب المتعلمة].

أما عن «الأستاذ أبو عطية» مدرس الدين واللغة العربية أيضاً ولكن للسنة الثالثة الإبتدائية، والذى أطلق عليه التلاميذ لقب «الشيخ جبّة»، لأنه كان الوحيد بين المعلمين الذى يرتدى الزى الأزهرى الجميل الوقور، ويضع على رأسه العمامة الحمراء المحاطه «بشال» أبيض ناصع البياض،ملفوف بدقة وعناية لافتة للنظر، كأنه ينافس بها «الطربوش» الذى يستخدمه زملاؤه.

«والشيخ جُبّـه»، الأنيق بقوامه الفارع وأسلوبه الصارم – ومخاصمته للابتسام – كان يبعث الرهبة فى قلوب التلاميذ، فلا تسمع أى حركة أو همهمات بالفصل، ويحرص معظم التلاميذ على حفظ ما أمرهم به من مقررات الدين أو اللغة العربية خشية العقاب، ولكن كان معظمهم – والراوى واحد منهم – كانت الرهبة قد تنسيهم ماحفظوا إذا وجه إليهم السؤال أو يتلجلجوا» فى الإجابة برغم محاولتهم التماسك لتذكر النص، فالخطأ يتبعه العقاب بالإهانة أمام أقرانه، أوقرص الأذن كبديل للخيزرانة المحظور استخدامها.

ولعل ماتقدم فيه الإجابة على تساؤل الراوى وآخرين مضمونة سِرْ احتفاظ الذاكرة بكل ما تعلمته من الشيخ عيد، بينما يصعب تذكر دروس الشيخ جُبّه؟ ولم يجد الراوى إجابة لهذا التساؤل غير أن حب المادة الدراسية المقررة والتمكن منها، يرتبط بحب أستاذها دون شك!!



حضرة مفتش الأنشطة الفنية

إزداد الولد طولاً، وازداد ارتباطه بأستاذه فى الرسم والأشغال اليدوية، وكان يقضى ساعات طوال بعد انصراف التلاميذ فى غرفة الرسم الواسعة. ليشبع هوايته بالرسم بالفحم وأيضاً بألوان الماء أو الجواش، والتى كانت دائماً موضع استحسان وإعجاب الأستاذ خليل، وكل من يراها من الأساتذه. وكان الوالد «حضرة الناظر» قليلاً ما يعترض على ذلك، ويدعوه للاهتمام بتنظيم وقته ليمنح المزيد منه لدراسة باقى العلوم، خاصة أنه أصبح فى السنه الرابعة الإبتدائى - وهى شهادة عامة - ليتوجه بعدها للمرحلة الثانوية، ومنها للجامعة بعد خمس سنوات، وأنه لن يقبل منه أقل من ذلك.

كان يدفعه هذا لزيادة ساعات المذاكرة بالمنزل لتحقيق هذا الهدف، حتى يرضى الوالد والوالده، وليتيح ذلك له ممارسة هواياته المتعددة مع أقرانه كالموسيقى - بصفته واحد من أصغر أعضاء «نادى هواه الموسيقى والتمثيل» بحى الحسنية بالمنصورة، - وكان رئيسه مدير البلدية -، وكذلك مشاركة أقرانه فى الألعاب الرياضية التى يفضلها ككرة السلة، أو تنس الطاولة «البينج بونج»، أو اللعبة الجديدة «الآسيوية» التى ظهرت لأول مرة بالمنصورة فى مدرسة الأمة وهى لعبة «الريشة الطائرة» وقد تعود زملاؤه أن يكون معهم فى كل الألعاب، وكان يسره ذلك، وكنتيجة لأنتقال سكن الأسرة من بيوت الشناوى إلى سكن خاص ملحق بمبانى المدرسة، فأصبحت المشاركة لا تكلفه سوى هبوط الدرج ليصبح وسط الملاعب. وكان لهذا الانتقال مزاياه للوالد أيضاً، حيث أصبح باستطاعته مراقبة كل ما يدور بالمدرسة وكذلك متابعة حركات وسكنات الولد وشقيقة سامى والتأكد من عدم معاملة الأساتذة لهما معاملة خاصة!!

وفى تلك السنوات كانت المدارس الحرة تحت إشراف وزارة المعارف ويتردد عليها عدد من المفتشين لمتابعة تنفيذ التعليمات والمناهج لكل الصفوف

الدراسية، ومستوى التلاميذ، ومدى استيعابهم للمواد الدراسية، وبالتالى إعداد التقارير الإدارية عن المدرسة ونشاط كل مدرس.

وكان للأنشطة الفنية والتثقيفية والرياضية نصيب واضح رغم محدودية الإمكانيات المادية، فكانت المدارس تتنافس فيما بينها على مستوى المديرية، ثم مرة أخرى على مستوى القطر المصرى فى «الألعاب المخصوصة»، وألعاب الفصول الرياضية والأنشطة الفنية الأخرى، كالموسيقى والتمثيل وذلك طبقاً لمناهج مُحدَدة من الوزارة يتم التقييم على أساسها، بالإضافة إلى فن الرسم والأشغال اليدوية المتعددة كإمتداد لما تعلمه التلاميذ منها فى مرحلة «الروضة».

كان السادة المفتشون لهم هيبتهم، ويتعاملون بجدية لاتعرف المجاملة. وكان حضرة الناظر لا يضيق بهذه الصرامة، بل على العكس كان يشجعهم ويساندهم ـ ولا غرابة فى ذلك فعدد غير قليل منهم كانوا من تلاميذه، أو من المدرسين الذين عملوا تحت إدارته فى مدرسته قبل الانتقال للعمل بمديرية التعليم

وفى دورة تفتيشية لمفتش الأنشطة الفنية، بدأ بغرفة الرسم والأشغال اليدوية «كالنحت والرسم على الخشب وأعمال «الأركيت»، وخلال تفقده اللوحات المعلقة لاحظ لوحة بألوان الجواش لمجموعة من البجع بشكل زخرفى هندسى، ومزيلة باسم التلميذ «عبد المنعم بدر»، فسأل الأستاذ خليل بغضب وصرامة « عاوز تفهمنى إن ده رسم تلميذ إبتدائى، فرد الأستاذ خليل بالطبع يا أستاذ ده عبد المنعم ابن حضرة الناظر، فزاد غضب حضرة المفتش، وأمره بإنزال اللوحة قائلاً «عيب عليك علشان تجامل الناظر، ترسم صورة بنفسك وتكتب عليها إسم إبنه»، هذا الإتهام المفاجئ والظالم جعل الأستاذ خليل يتلعثم، وأوشك أن يقسم أن هذا غير صحيح إلا أن انفعال حضرة المفتش لم يسمح له بأى إيضاح.

وبدأ سيادة المفتش بالمرور على الفصول، وفى الصف «الرابع أول» كان موضوع الرسم هو «جنى المحصول فى الحقل»، فشاهد عمل الأولاد أثناء الرسم، وكان يوجه بعضهم كيف تكون خطوطهم سهلة وتلقائية دون تكلف، وأثناء ذلك لفت نظرة تلميذ منهمك لا يحس بمن حوله رسم طريقاً

علـى يسـار اللوحـة، تحـده الأشـجار، مـع إبـراز العمـق فـى المنظـور للطريـق، وكذلك مراعاة اختلاف حجم الجمال التى تحمل الزكائب،وتسير في شكل قافلة دون انشغال بالتفاصيل، والاكتفاء ببعض الظلال التى تبرز المنظر العام بصورة لا تختطئها العين أو الفهم. وباقى اللوحة حقل ممتلئ بالقطن المتفتح يمكن تمييزه بسهولة بمجموعة من الظلال بالقلم الرصاص، توضح السيقان والأفرع التى تنتهى بلوز القطن ناصع البياض، وفى صدر اللوحة رسم النصف العلوى لفلاحه جميلة، تخفى نصفها السفلى خلف زكيبة تستكمل تعبئتها بالقطن، وقد وضع على خدها شامه ليبرز جمال وجهها، فتبادل حضرة المفتش والأستاذ خليل النظرات مبدياً إعجابه، بينما الأستاذ خليل تبدو عليه علامات الانشراح، وكان التلميذ منهمكاً فى إستكمال الصورة برسم «جمل بارك»، وصاحبه يحزم على ظهره زكيبتى القطن، ممسكاً «بالسلبة» حبل الربط ويشده ضاغطاً بقدمه اليمنى على الزكيبة ليحكم الربط، وأشار سيادة المفتش للأستاذ خليل ليلاحظ جلباب الرجل الملفوف حول خصره، ليظهر سروالة الطويل الذى يتدلى منه حزام الوسط «دكة السروال» لتتناغم مع سلبة الرباط على ظهر الجمل، فضحكا معاً، وبدأ حضرة المفتش فى الحديث مع التلميذ منبهاً له بأن قدم الرجل فوق الزكيبة تحتاج بعض الظلال حولها لتظهر ليونه القطن أسفل القدم، فرد التلميذ «حاضر يا أستاذ أنا عارف بس لما أخلص تظليل الجلّبية» فسألة ضاحكاً «إنت فنان إسمك أية؟» فقال عبد المنعم،فأكمل المفتش: بدر قال نعم، فنظر حضرة المفتش للأستاذ خليل قائلاً (رجع لوحة البجع لمكانها فوراً لو سمحت).كان ذلك خير انتصار ورد اعتبار للصديق الصدوق الأستاذ خليل رحمه الله. لتنمية موهبته وإعداده. وكانت هذه الحادثة موضع تعليق وحديث طويل بين حضرة الناظر وحضرة المفتش، الذى كان يؤكد للوالد بضرورة إعداده لإلحاقه بكلية الفنون الجميلة لتطوير موهبته.

ومن المصادفات النادرة أنه بعد عدة سنوات وفى أخر امتحانات الرسم فى العام الرابع من المرحلة الثانوية، والمعروفة بشهادة «الثقافة العامة» (وسابقاً كانت تسمى«بالكفاءة» ويتبعها عام واحد كان يطلق عليه «التوجيهيه» ويعادل شهادة الثانوية العامة الحالية).

وكانت مفاجأة للتلميذ أن يكون موضوع الرسم فى الأمتحان هو نفس الموضوع الذي أبهر المفتش والسؤال الثانى منظر زخرفى للطيور. وكانت مدة الامتحان ساعتين كان معظم التلاميذ يغادرون قاعة الامتحان بعد مضى نصف الوقت، فتبدو القاعة شبه خالية، أما صاحبنا فقد نسى الوقت وحتى المحيطين به وأخذ فى رسم الموضوعين باهتمام دون هواده، ولم ينتبه لوجود المراقبين وهما جالسين خلفه يشاهدان ما يرسم فى صمت حتى انتهى الوقت المحدد للامتحان بالتمام والكمال، وسلم ورقة الإجابة، ونال التهنئة من المراقبين، عاد للمنزل فى غاية السعادة برغم الإرهاق البادى علية، وكان المنزل على بعد خطوات، فمنزله بمدرسة الوالد، ومقر الامتحان بالمدرسة الإبتدائية الأميرية التى يفصل بينها وبين المنزل شارع فرعى صغير.

مرت عدة أيام وكان الأستاذ خليل ضمن أعضاء لجنة كنترول لتصحيح مرحلة الثقافة العامة، فتصادف وقوع ورقة امتحان صديقه التلميذ فى يده، فعرفها قبل أن يضم لها رقم الكنترول والاسم لورقة الإجابة، ولم يستغرب أن تلميذه قد حصل على الدرجة النهائية فى الرسم أى ٢٠/٢٠ فجاء فى المساء ليزف الخبر للوالد «حضرة الناظر» فرد مداعباً (ما هو دَه إلّلى إنتوا فالحين فية) وأصر الأستاذ خليل على الحصول على «الحلاوة» ـ فكانت فنجان قهوة مع حضرة الناظر مع وعد «بعزومة مفتخرة» بعد ظهور النتيجة.



من رسم الراوى عام ١٩٤٩ بالألوان المائية

فنون وشجون

رغم تعدّد اللغات على إمتداد المعمورة والقارات وتغيرها وتطورها مع مرور الزمن والقرون. تبقى لغة واحدة يفهمها ويتزوقها كافة البشر مع إختلاف وسائل وأدوات تأديتها ، ألا وهى الموسيقى.

لذا كانت مادة الموسيقى من الأنشطة المدرسية والتربوية تحظى بإهتمام لايقل عن الأهتمام بالأنشطة الرياضية والكشفية وخاصة بالعقد الرابع وقبل ذلك بعدة سنوات من العقد الثالث ثم العقد الخامس من القرن العشرين وبرزت خلال تلك السنوات العيد من المواهب الموسيقية فى العزف والتأليف الموسيقى مازالت أعمالهم غذاء للأرواح وتهذيباً للنفوس حتى الأن رغم إختلاف المشارب وتغير الأمزجة والعادات الثقافية ودخول الأجهزة الإلكترونية فى العزف والتأليف وتغّير الإيقاعات لتتناسب مع عصر السرعة والوجبات السريعة «والتك أواى» ومع ذلك مازالت لغة الموسيقى هى اللغة الوحيدة التى توحدها طرق كتابتها وقواعد لا يختلف عليها أحد وإن إختلف درجات التذوق والقبول بإختلاف البيئة والعادات والثقافات.

فلا غرابة أن تهتم المدارس فى تلك الحقبة بالنشاط الموسيقى وتعليمها للتلاميذ كواحد من أهم الهوايات المُهذبة لِلروح وتربية الوجدان على التذوق والأستمتاع بكل جميل مُباح من مباهج الحياة.

كان لحصول الراوى على ألة الكمان فرحة ما بعدها فرحة ، خاصة وأنه كان من أصغر أعضاء نادى« هواة الموسيقى والتمثيل بالمنصورة» سناً ، وكان يرأس النادى- مدير البلدية والتى كانت تقوم بأعمال المجالس المحلية والمحافظة حالياً . والنادى به عدد من الأعضاء من جنسيات وأصول مختلفة كاللبنانين واليونانين والأرمن وكان النادى يولى إهتماماً خاصاً للموسيقى العالمية الغربية.أما الموسيقى الشرقية فكانت الشغل الشاغل للموسيقيين ويخصص لها نادى أخر بالمنصورة للموسيقى وكان يضم عدداً غير قليل من

أساتذة الموسيقى الشرقية ويقع على كورنيش النيل فوق قهوة «أندريا» ويطل على «كافورة الزيات» الشجرة العملاقة التى يصل قطر جذعها إلى حوالى المترين وكانت من العلامات المميزة لكورنيش النيل - وكثيراً ما زاره الأستاذ السنباطى وأخرين من أساتذه. رواد ذلك الفن العريق.

ونادى الهواة نظراً لتعدد جنسيات أعضائه فغلب عليه الإهتمام بتعليم النوته الموسيقية وأداء «السولفيج الغنائى» للتدريب على تميز النغمات والتفرقة بين السلالم الموسيقية الغربية وكان النادى يهتم بتوفير الآلآت الموسيقية الأساسية كآلة البيانو ومجموعة الإيقاع لموسيقى الجاز، وكانت من أهم موجوداته أجهزة متقدمة لشغيل الأسطوانات المتاحة به لكبار المؤلفين العالمين كبيتهوفن وتشيكوفسكى وموزارت وغرفة إستماع كان يشرف عليها عضو هام وأساسى بالنادى هو المهندس المعمارى حسن الوتيدى والذى كان يُهدى للنادى من حين لأخر مجموعة تلو الأخرى من إسطوانات الموسيقى بأداء أهم فرق الموسيقى العالمية الألمانية والأنجليزية والفرنسية بقيادة قادة عظماء خلدوا أسماءهم بأحرف من نور فى سجل تاريخ الموسيقى الكلاسيكية التى يحتاج الأستمتاع بها لشئ من المعرفة الموسيقية لتقدير الجهد المبذول فى تأليفها والمواهب الخارقة للعازفين المؤديين لها وبالتالى تذوقها وتقدير قيمتها الفنية.

ونشأة الراوى فى هذا المناخ زرع فى وجدانه القدرة على التميز بين الفن الثمين والجهد المبذول لإخراج مثل هذه الأعمال الخالدة. وإن كان يعيبها قلة عدد المتذوقين لها وكأنها تقدم للخاصة فقط ولو أنه كثيراً ما تذوق العامة جمال ألحاناً منها حين سماعها كموسيقى تصويرية فى الأفلام السينمائية وكمقدمات لبعض البرامج الإذاعية أو التليفزيونية، ولا يدرى الراوى سبب عدم إهتمامه الكافى الجاد بالتدريب لإجادة العزف على آلة الكمان، ومازال يتذكر كلام مدربه حيث كان يقول «صاحب بالين كداب» والكمان آلة صعبة تعتز بنفسها بإعتبارها أميرة الآلات الوترية ولا تقبل من عاشقها إلا إحتضانها بهيام وعدم مفارقتها ليلاً أو نهاراً إلا ليحلم بها!!

وكان هذا التصوير فى الحقيقة محبطاً للراوى فهو يعشق «الكثيرات» الفرشاه والألوان وأقلام الرسم، وطينة الصلصال التى تذكره بالنهر الخالد

وإبداعات جدوده الفراعنه فى النحت فكانت تنازعه تلك الهوايات فيصعب عليه الجمع بينها إلى جانب واجباته الدراسية مع «الكمان» التى كانت تتطلب الذهاب للنادى والعزف أمام المدرب فى حين أن ممارسة الهوايات الأخرى بالمنزل أمر ميسّر.

وهناك سر آخر لعدم عزف الكمان بالجدية اللازمة قد يريح الراوى الإعتراف به بعد طول السنين، وهو صداقته العميقة وحبه لزميله «رضا هوّاش» وكان أصْغر العازفين على الكمان سناً لأنه فى نفس عمر الراوى فى حين أنه أبرع وأقدر العازفين من المحيطين به، فقد كانت موهبته متوهجة إلى درجة لا تصدق، وعلى الرغم من أن ما حصل عليه من دروس فى النوتة الموسيقية لم تكن لتأهلة لقراءة وعزف المقطوعات الكلاسيكية الكبيرة، كان يُدْهش الجميع بعد سماع أى «كونشيرتو» لعمالقة المؤلفين، فيفاجئ الجميع بعزف النغمات الرئيسية للكونشيرتو بمجرد السمع بدقه متناهية وبراعة لا تصدق. وكان الراوى أكثر المتحمسين لموهبته وتشجيعاً له وكان يفضل الإستماع له بدلاً من العزف معه حتى لا يشوه ما يسمعه بنغمة نشاز قد تصدر منه لنقص التدريب. وظل الحال على هذا النحو سنوات حتى إنتهاء المرحلة الثانوية فسافر الراوى للقاهرة للجامعة أولاً ولحق به رضا العازف صاحب الموهبة الرائعة وكان أمراً طبيعياً أن يترك الراوى سكنه مع زملاء أخرين ليسطحب معه عاشق الكمان فى سكن واحد. حيث قبل رضا «بالكنسرفتوار» المعهد العالى للموسيقى بعد أداء إمتحان القبول،

وكان يوم التقدم للإمتحان يوماً مشهوداً فقد وصل المعهد قبل موعد إمتحان القبول بمدة غير وجيزة ووقف وحيداً فى ركن قصّى من حديقة المعهد، فسمع بعض طلبة السنة النهائية لعزف الكمان بالمعهد يتدربون على مادة الإمتحان وهى أجزاء من كنشرتو الكمان للمؤلف «ماكس بروخ» وظل يستمع لهم وإقترب منه أحدهم وسأله أتعزف الكمان فأجاب فى تواضع - قليلاً - فطلب منه أن يرى الآلة التى يحملها ليختبر جودة صوتها، فأخرج الآلة من صندوقها ومر بأصابعة على أوتارها ليعيد ضبطها وقدمها للطالب ليعزف عليها. وكنوع من الذوق والياقة التى يتسم بها الفنانون قال لصاحبها «أسمعنى أنت أولاً مما تعرف». فدون تردد بدأ عاشق الكمان يعزف نفس الجمل

الموسيقية التى يتدرب عليها طلبه البكالوريوس من «كونشرتو ماكس بروخ». فأدهش الجميع وما هى إلا لحظات حتى كان عدد غير قليل من الطلبة يحيطون به مبهورين بعزفه وقوة الآلة التى يعزف عليها ويمتدحونه ظناً منهم أنه أحد المدرسين الجدد بالمعهد. فرفعت هذه البداية معنوياته، وأدى إمتحان القبول بإمتياز، ولم يتركه الممتحنون ينصرف إلا بعد أن يسمعه المايسترو أستاذ قسم الكمان الإيطالى سنيور «بمبوموناتو» الذى تبناه فنياً من لحظة سماعة وأصبح طالبة المفضل.

وأقام صاحب الموهبة النادرة بنفس السكن مع «الراوى» بمنطقة قريبة من مستشفى «مبرة محمد على» وتسمى أرض السادات مقابلة لجزيرة الروضة والمنيل ويفصلهما الفرع الصغير للنيل، وبالمنطقة المشهورة بأشجار التين البنغالى العملاقة- التى تتدلى بعض فروعها فى إتجاه الأرض لتنغمس بالتربة كدعامات للساق الرئيسية وتطلق جذور جديدة فى الأرض وتتحول إلى سيقان- (وسبحان الخلاق العظيم) ـ(وهذا النوع من الأشجار النادرة جلبه محمد على باشا الكبير عند بناء القناطر الخيرية). وقد حزن الراوى دون أن يستغرب أن أختفت تلك الأشجار النادرة بعد حين بدعوى التوسعة للطرق أو التطوير كما حدث لكافورة الزيات بالمنصورة - وإشجار حديقة الأورمان النادرة من همجية المتأسلمون).

شارك عاشق الكمان الراوى فى السكن لمدة عام وكان يلقى من الرعاية والحب ما كان يعوضه فى الغربة عن البعد عن العائلة، كما كانت العائلة فى إطمئنان عن إبنها لوجوده فى رعاية الله ثم بصحبه الراوى الذى يعلمون مدى حبه لإبنهم وإهتمامه به لمرضه فى سن مبكرة «بالبول السكرى» وحاجته للحقن بالأنسولين بإنتظام، وكان الراوى يقوم بهذه المهمة بدقه وحرص شديد يومياً دون ملل.

وسافر رضا لزيارة العائلة بالمنصورة ومراجعة طبيه ليحدد له الجرعات المناسبة. وفات موعد عودته بعده أيام ولم يعد ثم جاء الخبر المزلزل - لقد سقط مغشياً عليه بمحطة أتوبيسات المنصورة يوم عودته ويبدو أن ذلك لنقص السكر بالدم نتيجة جرعة زائدة راح على أثرها فى غيبوبه أودت بحياته وفقد الراوى أعز الأصدقاء دون أن يراه ويودعه الوداع الأخير أو يتلقى العزاء في

عاشق الكمان. الموهبة المذهلة التى شاء قدرها ألا تكتمل. (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت).



لحن الوفاق

عندما يتعايش البشر فى وفاق رغم اختلاف الأصول والأعراف وحتى الدين، ويجدون ما يجمع بينهم،تزول هذه الفوارق، وتتحول إلى صداقة قوية، ويتحولون إلى فريق متناغم دون تعصب أو حقد أو كراهية، بل يسعد كل منهم لنجاح الآخر وتفوقه فى مجاله، ويربط بينهم لغة واحدة، فتترابط أرواحهم ووجدانهم فى لحن واحد يغذى الروح، ويرتقى بها بعيداً عن الماديات الفانية فتصبح الحياة أفضل وأجمل ويعم السلام.

قد يرى بعض القراء الأعزاء أن ذلك لا يكون إلا فى «المدينة الفاضلة» وهو حلم صعب أو مستحيل ـ المنال-. وبرغم أن الراوى يتفق معهم فى هذا الرأى، إلا أنه كراوى ومضات الذكريات ـ عاش هذا الحلم فى صباه وشبابه فى نادى هواة الموسيقى والتمثيل بالمنصورة فى العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، حيث كان أعضاؤه مجموعة متنوعة من الأصول الشرقية والغربية، جمعت بينهم هواية واحده وهى حب الموسيقى بأنواعها، والنغم الجميل، ويتواصلون بها للتعبير عن مشاعرهم مع اختلاف أنواع الآلات المتعددة، وسماع الموسيقى بدأ من الطبول، وصولاً للمؤلفات الكبرى «كالسينفوني والكونشيرتو»، مع إهتمام خاص بما أبدعه سيد درويش وعبد الوهاب وسهرات أم كلثوم السنوية.

وهذه المقدمة التى قد يراها البعض أطول من اللازم كانت ضرورية لتنوع وتعدد الأشكال الموسيقية التى كانت تمارس فى نادى الهواة، دون تعصب من فريق ضد فريق. فهواة عزف العود والموسيقى الشرقية يستمع لهم فريق موسيقى الجاز الصاخبة، ومعظم أفرادها من أصول غربية، فهذا ديمترى يعزف على البيانو، ويجاوره محمد الشاعر،ورضا هواش على الكمان، وأخر على الساكسفون، ومجموعة الإيقاع «الباترى» للجاز يتناوب عليها أرمن وجورج وبينهم الراوى. ويتوقف الصخب لتوفير الجو المناسب لعشاق الموسيقى

الكلاسيكية بشئ من الإيثار والمحبه،برغم إختلاف مستوى الاستمتاع من كل فريق. وتأتى غرفة الإستماع للموسيقى الكلاسيكية ويتولى المهندس «حسن الوتيدى» شرح ظروف كتابتها وتقديم العمل الموسيقى الضخم مع شرح لظروف وحياة المؤلف، وأعظم وأشهر مؤلفاته، وكذلك الحديث عن فرق الهارمونيك السيمفونية التى تعزف هذا التسجيل، وقد يتطرق لمقارنه التسجيل بتسجيلات أخرى لفرق أخرى لنفس المؤلف(*)، ومثل هذه الجلسات والأحاديث العميقة كان لها بالغ الأثر فى أعضاء النادى من الشباب، وكانت المقارنة أمراً طبيعياً بين أشكال الموسيقى المختلفة، والمقامات الشرقية والغربية، وكان الأعضاء يتناقشون دون تشنج أو تحيز لما يحب،

بل على العكس فالمحب للموسيقى الشرقية، ويجيد عزف العود، ويحتضنه فى حنان كما تحتضن الأم وليدها، أو الحبيب لحبيبته، لايقلل من قيمة الموسيقى الكلاسيكية الغربية، ولا حتى موسيقى الجاز، بل كان يشارك أحياناً فى عزف بعض منها كارقصات الفالس، وكان أبرز العازفين على العود أحد أفراد عائلة عقل المعروفة، ويصاحبها كثيراً محمد الشاعر على آلة الكمان وهو من الشخصيات متعددة المواهب وكان يجيد اللغة الفرنسية إجادة تامة، وأهلّهُ ذلك فيما بعد للالتحاق بإحدى مؤسسات الأمم المتحدة بفرنسا، ثم العمل كمذيع بإذاعة «مونت كارلو» الشهيرة والتى تقدم برامجها من إمارة موناكو الفرنسية باللغة العربية الموجهة لدول الشرق الأوسط.

أما شقيقته الصغرى «عايدة الشاعر» فقد كانت نجمة حفلات النادى، وتغنى بعض أغانى المطربات، وتشارك بعض الأعضاء فى غناء الأناشيد التى تناسب فترة قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وكان الراوى يكتب أحياناً بعض الكلمات بمناسبة الحفل، ويقوم شقيقها محمد الشاعر بتلحينها، ومما يتذكره الراوى عن تلك الفترة نشيد

مع الشروق طريقنا بان وبدايته نصر

والكل قال آن الأوان قومى يامصر

(*) (والمقارنة بالتنويعات (الكادنزا) التى يعزفها الصوليست).

كما تولى محمد الشاعر أيضاً تلحين أغنية «

الزمان اللى قاسيت منه زمان

جَه صالحِنى وقال سَامحِنى علّى كان

وندانـى وقاللّى دوق طعم الحنان

من حبيب كان فى انتظارك من زمان...ألخ

وقد شاركت بها الآنسة عايدة الشاعر فى ركن الهواة بالإذاعة، وأجيزت بموجبها ضمن مطربات الإذاعة، وإشتهرت بأغانيها الشعبية التى كانت تصاحب بها فرقة رضا، أحياناً أو تغنيها منفردة، ومعظمها كانت من تلحين المايسترو على إسماعيل - رحم الله الجميع - فقد أسعدوا المستمعين بالعديد من إنتاجهم الموسيقى المرح الذى كان موضع جدل ونقد من النقاد، وخاصة أغنية «الطشط قاللى»(*).

وعموماً فعلى الرغم من صغر وتواضع نادى الهواه، فقد أوصل بعض أعضائه لطريق الفن والشهرة، ومنهم الممثل «أحمد عقل» - رجمه الله - وكان يشتهر بتقديم الأدوار التى تحتاج إلى جمع الطيبة مع قوة البنيان.

«وأتسأل دائماً، ما الضرر من البدايات الصغيرة، فمن أين جاء عميد الأدب العربى طه حسين، وأستاذ الأجيال العقاد، والألاف من المفكرين وعلماء الدين الذين أثروا بمؤلفاتهم المكتبات الإسلامية، وحفظوا للدين الإسلامى سماحته وسماته بعيداً عن غلو الخوارج والغلاة».

خارج السياق ولا أدرى لِما لا تتطور فكرة «كُتّاب القرية» ليتحول إلى وحدات صغيرة من المدارس تصل إلى أولادنا فى أماكنهم فى التجمعات السكانية المحدودة فى الأرض الزراعية الجديدة، حيث يوجد ألاف الأسر التى لا تقوى على تكلفة توصيل أبنائهم وبناتهم إلى أقرب قرية للالتحاق بمدرستها، فيُحْرموا من التعليم، وينضموا إلى جيش الأمية الذى نعانى منه اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً؟

(*) التى رأى بعض النقاد أن بها من الأيحاءات ما تزيد كثيراً عن الأستحمام فى الطشط؟

ويتذكر الراوى دائماً أفلام المهاجرين الأوائل إلى الغرب الأمريكى، فكان أول ما يقيمونه بالمكان الجديد مبنى المدرسة المتواضع، والعيادة الطبية، وطبيبها العجوز وبجوارها الكنيسة، وتعيين العمدة، ويبدأ التعمير وإقامة المجتمع الزراعى ثم الصناعى، ورغم الشرور التى كان يرتكبها رعاة البقر، وحروبهم الظالمة مع المواطنين الأصليين أقيمت حضارة حديثة كان أساسها مجتمع متعلم منذ البداية. دون انتظار لما تجود به الحكومات. وأتسأل هل من الصعب القيام بحملة قومية شعبية لنشر مدارس الفصل الواحد بالتجمعات الزراعية الصغيرة، وبالعشوائيات والأماكن النائية؟ يكون دور الحكومة التخطيط وإجراء الأبحاث والإحصائيات الضرورية، والكوادر اللازمة ودور المواطنين هو التبرع بالأراضى والمساهمة فى إقامة مبانى المدارس على أن توفر الحكومة الجهاز الإدارى والتعليمى من جيش الخرجين والعاطلين بمحيط المنطقة. لتقوم هذه الوحدات بتعليم الصغار نهاراً ومحو أمية من يرغب من الكبار مساءً!!.

ونكون بذلك قد عزفنا معاً لحن الوفاق ووضعنا الأساس القوى والضرورى للدولة الحديثة

وأدعو الله أن تتحقق لِى تلك الأمنية قبل أن ألقاه، فهو القدير العليم.



الاستعداد للعام الدراسي الجديد

المقارنة بين ما كان وما أصبحنا فيه لا تتوقف وَمَضاتُها بعقل وذاكرة الراوى المثقلة بهموم الوطن، وكثيراً ما تكون فى صالح الماضى على عكس المتوقع من أن يكون النمو والتقدم من طبيعة الشعوب والدول الحية، -وبالأخص صاحبة التاريخ العريق بين الأمم- لذا أرجو ألا يصيب القارئ العزيز الحزن أو الضيق عندما يُروى له ما كانت عليه الأنشطة الرياضية والفنية والثقافية فى مدارس الرواد بإمكانياتهم المادية المتواضعة، ومع ذلك حملوا شعلة التنوير ببسالة وأمانة، فأفرزت لنا العديد من عظماء الفكر والأدب، وعشاق الحضارة، رغم أنف الاستعمار العسكرى البغيض، وتحيزه الدائم للجاليات الأجنبية الأوربية. فكان الرواد كمن ينحت فى الصخر لتقديم العِلم والتربية لأبناء البسطاء، والطبقة المتوسطة فى صورة متكاملة، ولا يقتصر على تعليم القراءة والكتابة بالكاد، كما هو الحال حالياً فى العديد من مدارسنا حتى أصبحنا نرى منهم الحاصلين على الشهادة الإعدادية ويصعب عليهم قراءة جملة واحدة باللغة العربية لغة الأم بصورة صحيحة.

كان الراوى يسعد دائماً باصطحاب الوالد ومعاون المدرسة له للسفر إلى القاهرة العامرة قبل بداية العام الدراسى، لشراء ما يحتاجه العام الجديد فى من كراسات ومطبوعات ضرورية، بالإضافة إلى مستلزمات «المعامل» من أنابيب اختبار، وموازين حساسة وعدسات مختلفة، وميكرسكوب بالإضافة إلى قارورة الزئبق والمواد الكيماوية المختلفة، التى تستخدم فى التجارب المعملية لتحضير الغازات وما إلى ذلك لحصة العلوم والطبيعة (الفيزياء والكيمياء)، وكانت زيارة شارع «الفجالة» لهذا الغرض تُمتع الراوى على الرغم مما بها من مشقة وجهد يمتد طوال ساعات النهار، بل ويمتد لساعات من الليل أيضاً، وفى يوم أخر يخصص لشراء مستلزمات النشاط الرياضى وملابس الفرق الرياضية، والأقسام المخصوصة، والكشافة، واستكمال ما

تعزز شراؤه من محل «الأقصر» بالسكة الجديدة بالمنصورة، وبعض المحلات الأخرى الأقل منه شهرة، كل ذلك كان يُشْعر الراوى بشئ من الاعتزاز بالنفس، لأنه يشارك فى اختيار ما سيحتاجه الزملاء والأصدقاء فى عامهم الدراسى القادم، خاصة عندما يسأله الوالد عن مقاسات الملابس، والعدد اللازم من كل قياس، باعتبارة الأقدر على تحديد قياسات زملائه من التلاميذ.

وكمكافأة للراوى والمعاون الأستاذ أحمد أبو ليلة، كان حضرة الناظر يصطحبهم ليلاً لمشاهدة إحدى مسرحيات الريحانى، أو لتناول وجبة مشاوى فاخرة بعد صلاة العشاء بحى الحسين، وهو يحدثهم عن تاريخ المساجد والمبانى التاريخية التى تذخر بها المنطقة. وأحياناً المرور فى شارع محمد على لشراء الآلات الموسيقية اللازمة لغرفة الموسيقى أو «البروجى»، «والترمبيته» اللآزمة لفريق الكشافة، وكان من نصيب الراوى أله «الكمان» التى كان يعشق صوتها، والنغمات التى تصدر عنها خاصة من عازف ماهر ظل يتمنى أن يصبح واحداً منهم، إلا أن تعدد هواياته حال دون ذلك. فإقامه الراوى فى نطاق المدرسة ليلاًو نهاراً وتوفر الملاعب، خاصة كرة السلة، والكرة الطائرة، وأجهزة ألعاب القوى «ورنج» الملاكمة، وباعتباره «الولد الحشرى» منذ الصغر، فكان من الصعب عليه ألا يشارك فى كل هذه الأنشطة، فضاع وتوزع جهده بينها، فلم يبرز فى أى منها إلا كرة السلة وتنس الطاولة، أما عزف ألة الكمان- فلها حكاية أخرى سبق ذكرها، ومما يفتقده الراوى كثيراً لوحة الشرف التى كان يسجل بها إنتصارات المدرسة، وترتيبها على مستوى القطر المصرى فى مسابقات تحديد مستوى الاهْتمام بالأنشطة الرياضية، والتى كانت تتضمن الألعاب السويدية للفصول، ومسابقة أخرى لتحديد مستوى «الأقسام المخصوصة» التى تشمل تمرينات محددة على مستوى كافة مديريات مصر لسهولة التقييم والمقارنة بينهما. وكانت لوحة الشرف «المفقودة» تتضمن حصول مدرسة الأمة للبنين على المرتبة الأولى لعدة سنوات متتالية، بلغت تسع سنوات تخللها عامان فقط كان ترتيبها الثانية فى ألعاب «الفصول»، والأولى دائماً فى ألعاب «الأقسام المخصوصة».

ويأتى بعد كل تلك الأنشطة النشاط الثقافى، وقد يصعب على القارئ

تصديق أن مدرسة متواضعة للمرحلتين الإبتدائية وعدة فصول دراسية محدودة للمرحلة الثانوية كان بها نشاط مسرحى، وحفل سنوى تحضره عائلات الطلبة وطالبات المدرسة الشقيقة للبنات، ويُقدم عليها مسرحية للبنين وأخرى للبنات «لتلافى اعتراض بعض الأسر على مشاركة البنين والبنات فى مسرحية واحدة».

ومما لا ينساه الراوى مهما طال به الزمان مسرحية« اليتيم» لمدرسة البنات وكانت شقيقته الأكبر منه واحدة من أبطالها ، ومن المضحك أنها كانت تؤدى دور رجل، وترتدى بدله الرجال. وفى إحدى البروفات لأحظ المخرج الأستاذ «غنّام» أنها كلّما همت بالجلوس على المقعد تفرد براحتيها قماش البدلة من الخلف كما تفعل فى الثوب النسائى قبل الجلوس- ، فصاح فيها أن الرجال لايفعلون ذلك، فضج الجميع بالضحك، وأصبح الأمر فرصة للمشاكسة بينه وبين شقيقته. ومن المؤسف أن نص المسرحية المكتوب ومسرحيات أخرى ضاعت وجميعها كان من تأليف حضرة الناظر، كما ضاع العديد من كتبه ومراجعة ومجلداته القيمة.

ومن حسن الطالع أن الراوى نجح أخيراً فى الحصول على نسخة من نص مسرحية مدرسة البنين لعام ١٩٤٣ وهى «رسول السلام»وعرضت فى قمة نيران الحرب العالمية الثانية ، وتتحدث عن ويلات الحرب، وهى مسرحية شعرية من ثلاث مناظر، قدمت على مسرح المدرسة، وشخصياتها الأساسية - أم البشر حواء،وملاك يمثل رسول السلام، وهتلر - موسلينى جون بول والعم سام - أخرون ويدور بينهم حوار شعرى ويندد بهم كدعاة الحرب ويدعو للسلام. وقد رأى الراوى أن توضع صورة المسرحية كاملة بحالتها التى وجدها عليها دون ترميم بهذا الكتاب، تأكيداً لما يرويه، وهو على يقين أن القارئ العزيز سينبهر بما كانت تقدمه المدارس الحرة من جهد حتى فى أحلك الأوقات، وسط أصوات صفارات الإنذار وصياح متطوعى الدفاع المدنى(طفّوا النور) وفيما يلى نص المسرحية :-

مسرحية رسول السلام

رسول السلام

قطعة تمثيلية أدبية سياسية

« ذات ثلاثة فصول »

تناسب الوقت الحالى

تأليف

احمد بدر

ناظر مدرسة الأمة بالمنصورة

مطبعة الوفاق بالمنصورة



مقدمة

لما كانت الحرب الحالية هى الأمر الشاغل للعالم أجمع ، حيث لم ينج من أهوالها مملكة أو أسرة أو فرد ؛ قد قمت بوضع هذه القطعة التمثيلية باسم (رسول السلام) وهى ذات ثلاثة مناظر ؛ وكانت ضمن القطع التمثيليه التى قامت بها فرق التمثيل فى حفل مدرسة الأمة السنوية فى يومى الجمعة والسبت ٢٦ و٢٧ مارس سنة ١٩٤٣ .

وها أنذا أقدمها لحضرات القراء ، عسى أن يكون فيها بعض النفع الأدبى أو المسرحى . أو السياسى .

وفقنا الله لخدمة الانسانية ؟   المؤلف

احمد بدر
ناظر مدرسة الأمة بالمنصورة

أشخاص الرواية بحسب ظهورهم على المسرح

الفصل الأول

(١) الحارس الأول
(٢) الحارس الثاني
(٣) هتلر
(٤) الجستابو
(٥) القواد الأربع (جورنج - هيس - هملر - فون بوك)
(٦) رسول السلام

الفصل الثاني

حواء عليها السلام
رسول السلام
هتلر و معه (موسوليني - الميكادو)
جون بول ومعه (العم سام - ستالين)
ممثلو الدول الآتية (تشكو سلوفاكيا - النمسا - بولندا - النرويج الدينمرك - هولنده - بلجيكا - فرنسا المحتلة - ديجول فرنسا الحرة يغوسلافيا - اليونان)

الفصل الثالث

(١) نفس أشخاص الفصل الثاني ما عدا . هتلر - موسوليني - الميكادو
(٢) مصر ومعها (الحبشة - شمال افريقيا - السودان)

رسول السلام
الفصل الاول

رفع الستار عن مكتب الزعيم هتلر وبه الصليب المعقوف على جدران الحجرة وصورته على الحائط فوق المكتب الموضوع فى وسط الحجرة ومحاط ببعض الكراسى وعليه التليفون - الكرة الأرضية والخرائط . ويظهر الحارس الأول ويؤدى السلام للصورة — يمشى قليلا ثم يقف .

الحارس الأول — مضى على فى خدمة الزعيم هتلر خمس سنوات ، وقد اختارنى هنا هيس لاخلاصى وطبعا لأنى من عنصر جرمانى اصيل .

الحارس الثانى — (يدخل أثناء الكلام) كلنا من هذا العنصر . انى أقدر كل رجال الحزب وأبطال النهضة الحديثة وعلى رأسهم الفوهرر زعيمنا الأكبر.

« الأول - مهما بلغ إخلاصك لن يكون بالدرجة التى أنا عليها ، انى أحفظ خطبه كلها عن ظهر قلب

« الثانى - أنا لا أحفظها ولكن احتفظ بصورها فى الصحف وقد كونت منها مجموعة طيبة .

« الأول - أنت محق فى ذلك (بهدوء ملتفتاً إلى أعلى) إنها من إلهام الوحى الذى يهبط عليه وسط الجبال حيث يقضى وقت تفكيره فى مصلحة بلاده .

« الثانى - إنى أدون أهم الحوادث فى مذكرة أحفظها فى جيبى دائماً

« الأول - مدهش إنى أقوم بنفس هذا العمل وها هى نوتتى (يخرج نوتة)

« الثانى - هذا غريب اقرأ على شيئا منها .

« الأول -(متخذاً مظهر هتلر) تسابل خصومى وهم يشيحون بوجوههم عنى وقد ملئت نفوسهم حسداً وقد ظنوا أنهم هم المحتكرون للجماهير وتملكوا جميع قاعات الأجتماع حتى الشوارع ، ومع ذلك قد

— ٣ —

ظهرت على فجأة واستطعت أن أخلق حركة شعبية غيرت مجرى السياسة والاجتماع وستغير مجرى الحروب فى المستقبل، بل ستغير نظام العالم.

الحارس الثانى - أما أنا فنوتتى تعتبر سجلا لأهم الحوادث، إسمع ياسيدى — (يخرج نوتته) فى ٣٠ يونيو أعدم عدد من زعماء النازى البارزين رمياً بالرصاص بدون محاكمة ولا اعتقال، فى ٢ يونيو قدم رسمياعدد من اعدموا فى أثناء اخماد الثورة بتسعين رجلا، فى ١٣ يوليو قرر هتلر أن ٧٧ رجلا قدأعدموا بأمره وفى ٣٠ يوليو وأعلن أن الضرورة اقتضت ذلك، بعد ان كشف عن مؤامرة مدبرة لاغتياله فى ١٣١ كتوبر أعلن رسمياً الحكم بالاعدام على عدد غير معلوم من أشخاص غير معروفة أسماؤهم بتهمة الخيانة العظمى. (تهكم) (ملتفتا إلى زميله)

الأول - إن هذه المذكرات قديمة وعدائية تسجل الدم وتترك الحسنات أنت مدسوس علينا. (يتقدم ليخطف نوتته) أنت خائن. اليوم آخر حياتك.

الثانى - خائن. هذه رسميات يعلمها الشعب كله.

الأول - ولكن. هو رب النازية فلا يذكر فى داره إلا بالحسنات.

(يدخل هتلر فيرتبكان)

هتلر - علام تتشاجران؟. (يرتجف الثانى ويتقدم الأول فيؤدى السلام).

الحارس الأول: إن معه مذكرة تمس كرامة الزعيم.

هتلر - أين هى؟ (يأخذها ويقرأ فيها برهة ثم يهز رأسه ويتقدم من الخائن) أنت تحصى عدد الخائنين ومن قتل منهم. إذن فلتنضم اليهم. (يبرز أحد رجال الجستابو ويطلق النار على الخائن)

هتلر - احملوه - (يمشى ثائراً ثم يجلس بعنف) (الحارس الاول يمسح الدم)

هتلر - (يستدعى ضباطه بالتليفون) جورنج - احضر سريعا - هيس احضر بسرعة — هملر: احضر — فون بوك: احضر بسرعه

(لنفسه) سبع سنوات مضت ونحن ندرب الجيوش ونعد المعدات

— ٤ —

لقد أصبحت كلها قوة لا تدانيها قوة العالم بتجمعه - وهذا ما يجب أن تكون عليه أمة ترغب فى أن تسود العالم - ليست الحرب القادمة كالحرب السابقة — ان العالم سيدهش من الاستعدادات التى ستجعله يسلم دون حرب . وحرب الاعصاب أشد فتكا من حروب المعدات
(يدخل القواد كل بعد الآخر ويؤدون السلام النازى ثم يجلسون)
هتلر — أنتم تعلمون أنى رفضت كل مفاوضة بشأن ممر دانزج والمسألة ليست ممراً فى أراضى بولاندية لأملاكنا ولكنها حياة أو موت فهل أنتم على استعداد لخوض الحرب وحكم العالم ؟

الجميع — نعم مستعدون !
جورنج — يعلم الزعيم أن كل هذه الاستعدادات ليست من أجل ممر ، إنها كافية لوضع الشعب الآرى فوق رءوس الشعوب !
هملر — لقد أصبح لنا يا هر هتلر أصدقاء فى فرنسا وأمريكا والروسيا بل فى انجلترا نفسها ، كل ذلك سيسهل علينا الاستيلاء عليها إذا دقت ساعة العمل !
فون بوك — ان الفرق الميكانيكية على أتم استعداد لحصد أوروبا ان شاء الزعيم
هيس — يجب أن تكون ضربتنا صائبة - يعقبها تسليم العدو فى الحال !
فون بوك — الحرب الخاطف هى شعارنا - ولن نترك للعدو فرصة ليواجه جيوشنا .
هتلر — إننا لم نترك سلاحا إلا أعددناه ، الغازات والميكروبات إذا اقتضى الأمر سنستعملها ، نحن أولى بالسيادة
جورنج — هل ينتظر أن تدخل أمريكا الحرب كالحرب السابقة ؟
هتلر — سأحول دون ذلك ، فلن يكون هناك ولسن آخر .
هيس — هل يرى الفوهرر أن تحالفنا مع ايطاليا سيفيدنا إلى حد ما ؟
هتلر — اننا نستطيع بالطبع أن نستفيد من هذا التحالف وقتيا وان كان جنودها لا يمكن تدريبهم على أن يكونوا رجال حرب ، ولكننا نحن الاشتراكيين الوطنيين سنقف آخر الأمر وحدنا بصفة أننا نحن

— ٥ —

المختارون لنطبع خاتمنا على العصر القادم

همـلر — إيطاليا لا يمكن الاعتماد عليها

هتـلر — انه سيكون يوم سوء على المانيا اذا هى اضطرت لأن تعتمد على أمة مثل ايطاليا فى ساعة شدتها

جورنج — وماذا عن روسيا يازعيمى ؟

هتـلر — ان روسيا سواء أكانت شريكتنا ام عدوة فانها مسـاوية لنا ويجب مراقبتها . ونحن وان كنا تعاقدنا معها الا أننى احتفظت بذلك ليكون معنا الورقة الرابحة (يدق على المكتب) وثقوا بأنى سأهاجم روسيا بعد أن تكون أهدافى قد تحققت فى الغرب وعلى كل حال ، يجب ان نحتفظ بمبادئنا (البلشفية هى عدونا الميت)

جورنج — يجب ان تمتد املاكنا الى القوقاز شرقا وبحر الشمال غربا

هتـلر — (ملتفتا اليه) بل يجب ان تكون المانيا هى اوروبا

همـلر — نحن الشعب المختار الذى يجب ان يسود العالم (فترة صمت) ، هتـلر يفتح خريطة امامه ويطلعهم عليها ،

هتـلر ان فرنسا واهمة ، تظن ان خط ما جينو سيحميهم منا ولكن ليعلموا أن لدى من الخطط الحربية ما يجعل هذا الخط حربا على بلادهم ذاتها (يقفل الخرائط) والآن سأعتمد عليكم ايها السادة فى أن نصل الى هدفنا بسهولة نسبية وبغير إراقة دماء

فون بوك — لقد مهدنا الطريق الى مسافات بعيدة فيما وراء حدودنا

همـلر — لن نضيع وقتنا فى الكلام على حقوق الأقليات

هيس — اننا لا نطلب المسـاواة ولكن نطلب السيادة

هتـلر — عند ما تصبح ألمانيا عظيمة منتصرة لا يجرؤ أحد على أن يهز لكم كتفيه . ان مهمتكم أن ترجعوا لألمانيا هذا المركز الرئيسى فى العالم وتقودوا باسم الشعب الألمانى هذه الممالك المغلوبة . إننا الشعب الذى اختاره الله . الذى سيصبح القوة الكلية للوجود وسادة الأرض . (ملتفتاً اليهم) هيا الآن اعلنوا التعبئة وانتظروا الأمر . (يخرج

— ٦ —

الجميع بعد تادية التحية)

هتلر — « يتمشى فى الحجرة » سيرى العالم رجلا وقائداً وحاكما لم يسبق له مثيل لا بد أن أفوق فردريك والاسكندر و نابليون فى الشهرة . فأنا وإن لم أخلف ذرية تخلد إسمى فسأترك عملا يسجله التاريخ بين صفحاته . يرمونني بالجنون . . ها ها . . . سيعلمون بعد حين كيف أقبض على العالم بيدى ، وكيف أفاجئهم بقوة ونظام فيسلموا صاغرين . وليعلموا أينا المجنون ، فيا أرض اشهدى ويا سماء رددى إسماً سيدوى فى أنحاء العالم بعد حين ، يارسول السلام ، ليست لك حياة بين النيران

رسول السلام — « يظهر كشبح » ويحك يا هتلر ، ألا تخشى الله وانتقامه ؟ لقد هربت من آسيا أثناء الحرب اليابانية الصينية وهربت من أفريقيا أثناء الحرب الايطالية الحبشية فهل سأهرب مرة أخرى من أوروبا بسببك ؟

هتلر — بل لا تنتظر استقرارك فى أى مكان على الأرض

رسول السلام — أفوض أمرى إلى الله ، سأسكن السماء ، ولكن ؛ احذر لنفسك ، احذر لنفسك ، احذر لنفسك وشعبك فالعاقبة وخيمة

هتلر — تحذرنى ؛ ألا حذرهم منى يارسول السلام ، سأنقض العالم حجراً حجراً وسأجعله خرابا . وها هى أول طلقة كحجر أساسى فى ابتداء الحرب

(يطلق رصاصة من مسدسه)

ســــتار

-❊ الفصل الثانى ❊-

المنظر : تظهر حواء عليها السلام من خلف ستار شفاف ـ يسلط عليها كشاف أخضر أو أبيض ـ المسرح مظلم وكذلك الصالة

حـواء — أبنائي الاعزاء . مضى على الحرب خمس سنوات وقد هالني ما رأيته من أكبر مذبحة بشرية عرفها التاريخ ـ وأخطر عملية هدم وتدمير عانتها الكرة الارضية فإلى متى يستمر هذا الخراب ؟ إن الشيطان قد جسم لكم المبادىء والاموال فامست عوامل شر — من أجلها تسفكون الدماء وتخربون الديار لبسط السلطان والشيطان دائما نزاع إلى كل شر فلا تطيعوه ـ قد عصى ربه فلا تتبعوه ـ اغوانى من بادىء التاريخ فهبطت من نعيم الجنة إلى شقاء الدنيا ؛ خالفوا الشيطان وحاربوه تنجوا من قتل بعضكم بعضا إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا : أين رسول السلام ؟

رسول السلام — (فى هيئته الحقيقية على هيئة ملاك بأجنحة) نعم يا أم البشر

حـواء — أين كنت ؟

رسول السلام — كنت أرفرف على العالم منذ عشرين عاما فاذا باليابان وإيطاليا تشنان الحرب على الضعفاء وإذا بهتلر قد أعلن عناد الخراب والتدمير ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقام بحرب ضروس شملت العالم أجمع منضيا إلى من سبقه فلم أجد لى مقرا إلا فى السماء

حـواء — إيتنى بهتلر وزملائه محور الشقاء .

رسول السلام — طوع الاشارة يا أم الانسانية (يذهب إلى الباب ناشرا أجنحته ويأتى بظهره وامامه هتلر وموسولينى واليابان)

حـواء — ماذا دهاك يا هتلر ؟

هتلر — (يلتفت حوله) من هذا ؟

حواء — إنى أمك حواء

ر — حواء !!

— ٨ —

موسولينى — من أين أنت ؟
اليابان — ما هذا الكلام
هتلر — أنى أؤمن بالأرواح . نعم يا أماه أنا هتلر
حواء — قد رفعك اجتهادك واستعمال القوة من جندى بسيط إلى رئيس حكومة للريخ فى وسط أوروبا فهل يزداد بك الطمع إلى اقتحام ماجاورك من مواطن اخوانك مستعملا أفظع الآلات الحربية فوقعت صرعى تحت أقدامك الواحدة بعد الأخرى حتى فرنسا أم الحضارة والعلوم !!
هتلر — ان شعبى كان جائعا ، أيرضيك أن ينعم فريق من أبنائك بلذيذ العيش بينما يبيت الفريق الآخر على الجوع والطوى
حواء — ان شعبك لم يجع إلا بعملك وكيف لا يكون محروما وقد سخرته خمس سنوات فى صنع مهمات الحرب والدمار ؟. ان ما انفقته فى صنع الدبابات والغواصات والطائرات وآلات التدمير والتخريب بهذه الكثرة وبهذا الافراط الذى لم يسبق له نظير فى تاريخ العالم كان كافيا لسد النقص الذى تدعيه فى الأغذية ، هل ينفق رخاء وثروة حربية كهذه دهش لها من هم أكثر منك مالا وأعز نفرا ؟
هتلر — وهذا مايؤلمنى ، ليس فى هذا العالم من هو أعلى منى واحق بالسيادة !
حواء — إذن فعلت هذا لأمر فى نفسك حبا فى السلطان الواسع لنشر مبادئك
هتلر — فعلته لأضع شعبى فى المكان اللائق بسمو نفسه ولأوفر له السعادة فى المستقبل
حواء — وهل ضمنت لهم السعادة بهذه الحرب الضروس التى قضت على شبابهم وشيوخهم وطوحت بثروة بلادك وغيرها فى الهباء وقاع البحار !.
هتلر — هذا لا بد منه . ولم أسأل عنه وحدى ؟. « لزملائه بشدة » تكلما .
اليابان — أماه أنا اليابان غمرت العالم بصناعاتى الرخيصة فضاقت الجزر بآمالى فطلبت أرضا واسعة ؛ أنشر فيها العلم وأقضى على المخدرات فيتذوق الناس طعم الحياة
حواء — إنك مخادع ، إنك تروج المخدرات بنفسك بين اهالى الصين كى تضعفهم فلا يقاومون ؛ وصناعاتك ماهى إلا مضرب الأمثال فى الضعف وشغل

الأطفال إنصرف من أمامي (ينصرف اليابان بحزن) وأنت يا موسوليني؟
موسوليني - أماه ما كنت اطمع فى شيء سوى أن أوسع امبراطوريتى الشرقية
فلم تسعفنى القوة ولم يصادفنى الحظ ففقدت ما كسبت مع طول الحرب
حواء — لأنك أسأت النية وأخطأت التقدير
موسوليني - لم أسيء النية لأحد .
صنعنا البوارج باسم الدفاع * كفعل الممالك فى عصرنا
رسول السلام - ياشيخ .
موسوليني - واكثرت صنعا للطائرات * تصون من الجو أملاكنا
رسول السلام - صحيح ، صحيح
موسوليني - سبقنا الشعوب بعلم الأثير * أتى بالغرائب مركوننا
بلاد الثغور على الماء بحرى * ترفرف فى البحر اعلامنا
نصيد المغير إذا ما أتانا * وندفن فى اليم أعداءنا
رسول السلام - هذا مايدعيه كل معتد أثيم
موسوليني : ليكن ماتقول :
فقمنا بحرب وراء البحار * نوسع روما وسلطاننا
وهذا حليف وجار عظيم * نرقى الشعوب باحكامنا
فطال الزمان وساء المكان * وضاع الصومال وأحباشنا
رسول السلام - مبارك
موسوليني - وبرقاء ولت وليبياء ملت * طرابلس أمست لدى غيرنا
حواء — وهذا جزاء المعتدين ؛ طلبت جديدا فضاع الجديد والقديم
رسول السلام - وأين خطاباتك على فوهة المدفع ياحامى الاسلام . كم قلت ويل للشعوب الضعيفة
هتلر — تعترف بالهزيمة يانذل؟
موسوليني — فنلى حزين واومى حرام * فقدت الرشاد وضاع المنى (يتمايل)
هتلر — إنه رجل ضعيف اعتمد على قوتى وليس أدل على خبله من ان يعترف بهزيمة مؤقتة كهذه لا تلبث أن تنقلب فنعيد ما فقدناه وزيادة

— ١٠ —

رسول السلام — كأن ما حصل هو تقهقر لحظة موضوعة
هتلر — لا تشمت فلا تقهقر بعد اليوم فلينتظر العالم ما أظهر من آلات دمار
وأنا الكفيل بالانتصار أنا هتلر أنا هتلر وكفى
(تسمع أصوات قادمين)
رسول السلام — من القادم ؟
الحلفاء — نحن الحلفاء
رسول السلام — الحلفاء قادمون ماذا أفعل ياأم الانسانية؟ماهذا الإحراج؟
حواء — دعهم يدخلون وقف أنت حائلا بين الفريقين
رسول السلام (يتوجه إلى الباب ثم يعود ويظهر وأمامه جون بول والعم سام ومتالين)
جون بول — شممت رائحة الوعيد وسمعت صوت الحديد فهل في الجو من جديد؟
حواء — ياجون بول أنا أمك حواء
جون بول — (خالعا قبعته) مرحبا مرحبا ياأماه
حواء — ناديت للسلام فلم يجد نصحي فهل ينفع القول لدى ابني الأكبر فينظر
في العفو عن ابني الأصغر
جون بول — أهتلر تقصدين ؟
حواء — نعم
جون بول — إنه مجرد عن الانسانية مجسم للوحشية
هتلر — (بغضب) أتسمعين يا أماه ؟
جون بول — هذا أقل ما توصف به
هتلر — تريد أن نعيش كما تعيشون
جون بول — وماالذي منعك؟ تفاوضنا معك المرة بعد الأخرى اتقاء الحرب
وشروره فعز عليك ترك ما أعددت من العتاد للخراب والدمار وكان
لسان حالك يقول متغطرسا مفاخرا
مخازن النار ملأى أين انفقها • وقد اعدت اسحق الجار بالنازى
والكل في رحمتي إن شئت احكمهم • مثل الطيور إذا ماساسهم بازى
هتلر — لو لم أكن اهلا للسيادة ماافتضيت عليها

جون بول - تريد ان تحكم العالم وهذا لم يتأت ولا للرسل ؟
العم سام - ان الحروب لها قانون من قديم الزمان ماذنب الأهالى العزل حتى تغير عليهم فتدفنهم تحت أنقاض ما كنتم ؟ وما ذنب اطفال ترسلهم انجلترا وراء البحار تاركين آباءهم وبلادهم خوفا من قنابلك فتتربص لهم عرض المحيط وتقذف بهم فى اليم وهم لا حول لهم ولا قوة فيصيرون طعاما للاسماك ؟
جون بول - أنك مجرد من الرحمة
هتلر - تلومون بطشى وسفك الدماء ٭ وعند الكلام يعز الطلب
جون بول - هذا كلام ظاهرى طالما سمعناه
هتلر - شعبى نبيل يريد الظهور ٭ حياة علو ومجد يجب
تعلم كل فنون الحروب ٭ كعلم الحساب وبحر الأدب
جون بول - كل الشعوب كذلك
هتلر - أباد التطور كل القديم ٭ وحل الجديد رفيع الرتب
فليس بمجد بريق السيوف وحرب الكلام ونار الحطب
تحولت كل البلاد جحيما ٭ واسكنت جيشى مطايا السحب
وشتى صنوف الدمار لدى ٭ ومن فوق رأس العدو تصب
ستالين - أسرعنا فى مقابلتك بمثل ما فاجأتنا به وسترى ما يدهشك
العم سام - انتهزت عدم استعدادنا ولكن غاب أملك والحظ معنا
هتلر - ومهما جمعتم لأخذ الحساب ٭ فإنى قوى سريع الغضب
سأعطى الخصوم دليل النهوض ٭ وأخذ بالنار كل الطالب
الحلفاء - (يضحكون باستهزاء)
جون بول - آخر ما عندنا لك
حواء - لا حول ولا قوة إلا بالله .
جون بول - إنك مخدوع ولا زلت تغالط نفسك وشعبك ان ضعفك قد ظهر للعالم أجمع وحرب الاعصاب والخطة الخاطفه لم تعد نافعة سنعطيك درسا قاسيا ستعلمه بعد حين
هتلر - أنا !.

— ١٢ —

. جون بول - نعم أنت .

أغرك بعض انتصار المكان — و أخذك أرضا بأوهى سبب
حسبت كفاحك نعم الكتاب — شريف الكلام لسان العرب
جيوشك أضحت بأرض السوفيت

ستالين -
تجر الذيول تجيد الهرب
وهاك الزمان دليل بأنا — على الخصم نأتى أشد اللهب
لنا من عتاد الحروب جيوش — هم فى الشدائد جسم وقلب
سلاح الجليد لنا وحدنا — عليه صنوف العذاب تصب
وفى عقر دارك يبقى الحساب — و نشرب نخبا
الجحيم :
عصير العنب
العم سام — وتعرف كيف تكون الحروب . وكيف يكون الحجا والأدب
جون بول — وكيف يكون الكلام فعالا . بحكم الزمان وسيف الذهب
فما الحرب إلا عقول ومال
رسول السلام
و ما الدهر إلا سجل العجب
هتلر - هذا كله لايهمنى مهما اجتمعتم . إنى أزن العالم بقوتى
أوربا كلها وما ملها تحت تصرفى . شعوبها وخيراتها بقبضة يمينى
جون بول- لن تسطيع القبض عليها طويلا . إن الحكم فى بلادك نفسها
لم يقم إلا على مذابح الاستبداد وفظائع الجستابو
العم سام - أنت لم تصعد الى كرسى الرياسة إلا على جثث اصدقائك ودماء مساعديك
هتلر - إن مصلحة الوطن تقضى بذلك
ستالين - لا تقول إنه اختلاف الرأى وخروجهم عليك ؟
جون بول - إن جميع الممالك التى اكتسحتها لن ترضخ لسلطانك ولن
تستطيع حكمها مجتمعة
العم سام - إن الولايات المتحدة وجميع دول أمريكا قد وهبت كل ثروتها
لنصرة الدمقراطية ومساعدة الشعوب المحتلة وتحريرها
ستالين — أما روسيا فقد بدأت باكتساحكم عن أرضها وستواصل مطاردتكم

— ١٣ —

إلى أن يحمل برابن ساعمه اخرى للسوفيت

جون بول ـ لن ينجو العالم من الهلاك إلا اذا أبيدت الهتلرية رأس البلاء.

هتلر ـــ وأنا أعرف كيف أقضى على الديمقراطية لأرفع رأس النازية.

والميدان هو دليل الكلام. سأضطر لاستعمال الغازات

جون بول ـــ سنقابلك بالمثل.

حواء ـــ ماهذا التهديد ياأبنائى؟ إذن ضاع الأمل فى طلب السلام.

رسول السلام ـــ عجزت عن المقاومة ياأم الزعماء ماذا أفعل؟

هتلر ـــ يارسول السلام ليست لك حياة بين النيران.

جون بول ـــ يارسول السلام لتسكن السماء.

العم سام ـــ حتى يتم الهدم ويبدأ البناء.

رسول السلام ـــ ياربارفع عن عبادك الغضب انزل القضاء وعم البلاء (يخرج)

جون بول ـــ أيتها الشعوب المحتلة جاءكم اليوم المنشود فثوروا لحريتكم.

هتلر ـــ سأقتلها بلا حساب كلها رهائن تحت يدى

جون بول ـــ لن تستطيع

الدول ـــ ذقنا على يديك الموت والجوع والعذاب (من الخارج) (تدخل كل دولة وفى يدها علمها)

أنا تشيكوسلوفيا المغصوبة   أنا النمسا المظلومة

أنا بولاندا الممزقة   أنا النرويج المغلوبة

أنا الدانمرك المستضعفة   أنا هولندة المشردة

أنا بلجيكا الضحية   أنا فرنسا المخدوعة

أنا ديجول فرنسا الحرة ـ أنا يوغوسلافيا الثائرة ـ أنا اليونان الجائعة

جون بول ـــ المعركة الفاصلة ضموا الصفوف

العم سام ـــ احفظوا النظام وحدوا القيادة

(نداءات) تشرشل القائد العام، روزفلت بطل الميدان، ستالين القائد المقدام وتطفأ الأنوار، تبدأ المعركة بدقات طبول ومدافع صغيرة ومسدسات، أصوات استغاثة وأزيز طائرات.

ستار

الفصل الثالث

« ترفع الستار والصالة مظلمة ، وكذلك المسرح . نفس المنظر فى الفصل الثانى »

حواء — بسم الله الرحمن الرحيم (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم فيما كنتم فيه تختلفون)

رسول السلام — (يدخل وفى يده فانوس) « يمش الهوينى » استيقظوا . استيقظوا . استيقظوا ، يامن على قيد الحياة ، هبوا من رقدتكم ، إنى رسول السلم - إنى رسول السلم :

إنى رسول السلم جئت مناجياً ٭ دولا غدت بعد الحروب ذهولا (يخرج)

(الدول تستيقظ متثاقلة ثم يضاء المسرح تدريجياً - تنظر الدول فى وجوه بعضها البعض ثم تصافح كل دولة الأخرى ذاكرة اسمها)

بولندا — مات الذى جر الشقاء لأرضنا ٭ ذقنا الممات على يديه وبيلا لا ذنب إلاأننا جيرانه

النرويج — لم يحترم عهداً ولا تمثيلا

اليونان — لطم الجميع بضربة وحشية ٭ ومشى لأعداء يروم سبيلا

ستالين — لكنه ذاق الممات وشعبه ٭ أمسى فقيراً ساخطاً وذليلا

بولندا — جرالشقاء إلى الشعوب جميعها ٭ شيبا واطفالا فتى وكهولا

تشيكوسلوفاكيا : أمست بلادالعز فى بأمانها ٭ تحتاج فى رد المنافع جيلا

النمسا — أكل المؤونة كلها فى جيشه ٭ قتل الشباب الناهض المأمولا

بولندا — حيوا الشباب

اليونان — أحيوا ذكرى الشهداء

الجميع — تحيا ذكرى الشهداء

ستالين — حيوا الشهيد : حيوا الشهيد

حيوا الشهيد وشيدوا تذكاره ٭ فرفاته أضحى لنا مجهولا

الدانيمرك - وضعوا على أحجاره آيات فخر ٭ للبلاد ؛ وزينوا الأكليلا

—١٥—

فرنسا — وتقدموا بالمال نحو عشيرة ٭ فقدوه كان لقوتها مسئولا
النمسا — ضحى بأغلى ما لديه منفذاً ٭ أمر الرئيس مواجها عزريلا
هولندا — فلتتخذ من حبه لبلاده ٭ أسمى جهاد كان فيه رسولا
رسول السلام — (داخلا بيطء):
ماالعيش في الدنيا المدامع هكذا ٭ دول تقتل بعضها تقتيلا
أو كلما سمت العقول بعلمها ٭ تأتي أسباب الهلاك دليلا
حيرتموني بينكم هل بعدهذا الحرب ٭ يرجى أن أعيش طويلا ؟
جون بول — ستعيش وتبا بأسلام أفله ٭ قرنان إن صفت النفوس قليلا
العم سام — سيكون عيشك في ربوع خمائل ٭ وتظلنا أشجارها تظليلا
جون بول — سنشيد بنيانا قويا أسسه ٭ نهج الوفاق محببا مقبولا
ستالين — وتكون أنت التاج فوق رءوسنا ٭ ترعاك ما دمنا عليك عدولا
الرسول — شكراً ، شكراً
شكراً إذا اقترن الكلام بفعله ٭ كان السلام من الحروب بديلا
• يخرج • (تدخل مصر ومعها السودان وشمال أفريقيا والحبشة وفلسطين)
مصر — منا إليكم ألف ألف تحية ٭ أقطاب هام الغرب لا تفضيلا
تشرشل — أهلا وسهلا مرحباً اخواننا ٭ الشرق صار حضوره مقبولا
مصر — يحلو الكلام إذا الحروب تناهت ٭ والشاكرات من الممالك جاءت
الحبشه — عاد النجاشي للبلاد معززا ٭ وأزيحت الطليان بعد السيطره
غزو أضاع رجالنا ونباتنا ٭ الغاز يخنق والجيوش محاصرة
والفضل في اخراجهم لحليفة ٭ كانت على الدول الصغيرة ساهرة
(مصالحا) الشكر منا واجب نسديه من ٭ أعماق قلب كنت فيه الجوهرة
طرابلس — ذقنا من الطليان كل كريهة ٭ ألقوا بنا في الجو من عليـاء
سكنوا الديار وطو حوابيوتنا ٭ وسط القفار وقسوة الصحراء
النصف عاش على المذلة ساخطا ٭ والنصف مات من الضنا والداء
(مصالحا) انا لنشكركم على انقاذنا ٭ روح الحياة بدت بكل صفاء
السودان — إني ومصر الدهر جسم واحد ٭ لا يقبل التقسيم والتشريح

— ١٦ —

والنيل شريان يغذى روحنا ﴿ يجرى الدماء به يكون صحيحاً
مصر — الشرق جاء لوضع أس للسلام ﴿ الغرب منه مهندس ولنا النظام
يبقى البناء معززا سلطانه ﴿ إن كان فيه الرسم تحقيق الوئام
جون بول — إنا نرحب بالخطاب وفصله ﴿
ستالين — منعا لتجديد المشاغب والخصام
العم سام — يامصر أنت زعيمة للشرق بل ﴿ وكنانة الرحمن فى الأمصار
بلد إذا اقترن الجميع بحسنها ﴿ كانت عروس الكون فى الاقطار
ستالين — النيل يجرى سلسبيلا شافيا ﴿ يحكى شراب الورد فى الأنهار
ماضيك ينبوع المعارف والحجا ﴿ مثل من الاكرام والإكبار
جون بول — شيدت صرحا للفنون مخلدا ﴿ فرعون شاد المجد بالأحجار
العم سام — واليوم عهدك زاهر بعلومه ﴿ ومليكه وشبابه الأخيار
جون بول — الطفل يجبر للتعلم صاعدا ﴿ للجامعات وأخته بجوار
ستالين — وبك المصانع والمصارف قد علت ﴿ كعبا فلا خوف من الاعسار
جون بول — نفذت نص تحالف بصراحة ﴿ عرضت أرضك كلها للنار
ووقفت من خصم لدود وقفة ﴿ النبل فيها رغم كل شرار
إنى على عهد التحالف قائم ﴿ فلتطمئنى
مصر : هل ترى أفكارى ؟.
جون بول: نعم. عندى المطالب كلها وعلاجها ﴿ أمر عليه مدارى
إن الشعوب صغيرها وكبيرها ﴿ بالعلم صارت مسرح الأفكار
ستالين — لاتحسبوا التسويف عهداً راجعا ﴿ الحرب درس خطه من نار
جون بول — وتحالف يرعى التبادل بيننا ﴿ فى الخاصلات بأحسن الاسعار
أبقى على حفظ المصالح دائما ﴿ خير لشعبينا من استعمار
عهد علينا أن نكون سواسيا ﴿ والسلم فوق الرأس تاج فخار

رسول السلام : يدخل ثم يصعد على شيء مرتفع وبيده الكرة الأرضية ـ الشرق على يمينه والغرب على يساره وينشد)

يا شعوب الأرض هيا ، وانشدوا في السلام
عاهدوني أن يكون الفعل عنوان الكلام
لا اعتداء على ضعيف — لا ضرورة للخصام
شيدوا صرحي قوياً — واكشفوا هذا الظلام

المول : يارسول السلم انا — نبتغي منك الوئام
فاغسل الآثام عنا — واتخذ فينا المقام
أنت عنوان المحبة — أنت رمز للسلام
ها لك أيدينا فصافح

رسول السلام : كلكم دول عظام



ستار

{حقوق الطبع والتمثيل محفوظة للمؤلف}

أجازة قصيرة ... ولكن

«ديرين»قرية من قرى الدلتا القريبة من مدينة المنصورة كانت معظم أراضيها وقرى أخرى مجاورة فى زمام أملاك عائلة البدراوى باشا الشهيرة، ودون الدخول فى جدل طال أمده عن مستوى عطاء هذه الأراضى من خيرات لمصر، وهل كان أفضل فى ظل وتحت إدارة عائلات «سُمّيت» بالإقطاعية بعد ثورة ٢٣ يوليو المجيدة، أم بعد توزيعها على الفلاحين، وتمليكها لهم لزراعتها، والتاريخ وحده هو الحكم وليس الراوى فى مجال المقارنة، وإصدار الأحكام بل فى مجال إبراز صور وحكايات عما كان يدور فى هذه القرية كنموذج لقرى عديدة شهدت نفس التحولات.

فالقرية كانت معظم مبانيها من الطوب اللّبن، وعدد محدود «بالطوب الأحمر» لبعض العائلات المعروفة متوسطة الحال، وبعض أفرادها أتيحت لهم فرصة التَعليّم فى مدارس «البندر» بالمنصورة، أو بقرى أكبر كقرية نبروه«المشهورة بإنتاج الفسيخ ليوم شم النسيم».

وكان الولد الحشرى قد أصبح صبياً محباً للأسرة الكبيرة ودائم التردد على منازلها للزيارة، وأحياناً للإقامة لعدة أيام ليرى المزيد من الاختلاف فى أساليب الحياة والعادات، فكان كثير التنقل فى أجازة الصيف بين منازل الأسرة الكبيرة بالحوّار ومنزل أسرة شاكر زوج شقيقته الكبرى زينب«بدرين»وهو منزل الحاج عبد الحميد شاهين من كبار المسئولين فى إدارة أعمال سيد باشا البدراوى بالأرض الزراعية، وكان من المقربين إليه وعلى علاقة طيبة بكبار الأسرة مثل محمود باشا زينهم بك وأخرين، وكانت كبيرة أسرة شاهين هى السيدة أم صفوت وهو أكبر أولادها الأربعة، صفوت وشاكر وعبد الحميد وكامل، أما البنات فكن خمسة لاتناديهن إلا بأسماء الدلع«ألفت» وبعدها «سمارة»، ثم «بياضة»، والرابعة «وزة»، والخامسة «سعدية»، ويمتاز جميع أفراد الأسرة ذكوراً وإناثاً بالجمال الباهر الذى يندر

وجوده بالريف المصرى كاللون الأشقر والعيون الملونة لبعضهن وراثه من الأم، التى كانت الأسرة الكبيرة تتحاكى بجمالها. أما ما كان يلفت انتباه الولد الحشرى أكثر من كل ذلك هو اهتمامها البالغ بنظافه المنزل وأسلوبها المتفرد فى تطبيق الملابس وملاءات الأسّرة بعد الغسيل، فكان يراقبها باستغراب، فعلى الرغم من عدم اعتمادها على كىّ الملابس بالمكواه إلا انها تكون فى صورة أفضل من التى تأتى للمنزل بالمنصورة مع «صبى المكوجى»، ليس هذا فقط بل ترتيب الملابس والملاءات والمفارش بأماكنها فى «الدواليب» لا تقل تنسيقاً عن كتب الوالد فى مكتبته، وكان يراقبها وهى تصدر الأوامر للبنات والشغلات، فيتذكر أيام طفولته المبكرة فى الحّوار وزينب الكبرى تصدر الأوامر للكبير والصغير بالحارة.

أما الحاج عبد الحميد فكان يقضى ساعات النهار بطولها بين ديرين وقرى أخرى، منها «نشا» و«تيرة» ليتابع العمل، والجزء الأول من المساء بقصر الباشا لتقديم التقرير اليومى، وفى الغالب يتناول العشاء بصحبة الباشا وبعض كبار العاملين بالحكومة أو المقربين من كبار القرية.

وكان الابن الأكبر له قد تخرج من الجامعة بالقاهرة مهندساً إنشائياً بتفوق، وسمح له الباشا بإقامة منزل من دور واحد بالطوب الأحمر بالقرب من مدخل منازل القرية وكان الدخول للقرية يتم بالمرور فوق اثنين من الكبارى تعلوا الترعة المارة بمحازات الطريق، والكوبرى الأول يؤدى إلى فيلات البكاوات زينهم وأشقائه، ثم يؤدى إلى قصر الباشا، والكوبرى الثانى يؤدى إلى منازل القرية.

ومن الجدير بالذكر أن المهندس صفوت شغل مناصب حكومية كتيرة يَرى الراوى أن أهمها كان (وكيل لوزارة السد العالى لشئون السدود) حيث كانت إقامته شبه دائمة بأسوان حتى تم تحويل مجرى النهر وافتتاح السد.

أما الأستاذ شاكر فكان يعمل محاسباً بإحدى شركات التأمين حين تقدم لخطبة «زوزو»، شقيقة الراوى «زينب الثالثة» جميلة جميلات الأسرة بعد الجدة زينب الكبرى، وزينب الثانية شقيقة «حضرة الناظر» وكان هذا سبباً لكثرة الخطاب، والإكتفاء بحصولها على الشهادة المتوسطة دون استكمال التعليم الجامعى، فكانت من نصيب شاكر شاهين ومن المصادفات اللافته

للنظر أنهما أنجبا أربعة من الصبية وأربعة من البنات وذلك على خطى «الست» أم صفوت، تقريباً وكان ذلك فى معظمة قبل قيام الثورة أو بداياتها، وقبل صدور تعليمات الزعيم الخالد بتحديد النسل و «تنظيم الأسرة».

وكان أصغر الذكور «كامل» يزيد قليلاً فى العمر عن الراوى، وكان يصاحبه معظم الوقت ليذهبا معاً لمشاهدة المزارع، وإسطبلات الباشا للخيول العربية الأصيلة، ويستمتعان معاً بركوب الحمار فى جولات على الطريق خارج القرية، أو وسط المزارع.

ومن أهم ما علق بذاكرة «الولد الحشرى» لقاؤهم مع«أبو تِقَىّ» وهو إنسان عملاق أشبه ما يكون «بإنسان الغابه» الأسطورى، يسير بالقرية عارياً تماماً كما ولدته أمه دون أن يتأذى من منظره أى من أهل القرية بجميع أعمارهم وأجناسهم، ودون أن يتعرض له أى منهم بأذى ويبدوا أنه أصم لا يستطيع الكلام، بل يصدر همهمات تفهمها ربات البيوت، ويميزن ما يطلبه إن كان طعاماً أو شراباً، وأثار حب أستطلاع «الولد الشقى» أن يعرف حكايته، فلم يحصل على إفادة شافيه من أين جاء، ومَنْ أُسرته إن كان له أسرة، ولماذا لا تخجل النساء منه؟ ولماذا لا يلقى الصبية عليه الحجارة؟ كل ذلك يدور بذهنه دون أن يحصل على إجابة مقنعة ـ وتساءل لماذا لا يحاولوا تدبير ما يغطى به جسده ويستر عوراته ـ فكانت الإجابة بأن كل المحاولات فى هذا الشأن باءت بالفشل حتى الملابس التى أعدت له عده مرات بتعليمات الباشا من أقمشة قوية، تصنع منها الخيام وأقلعة المراكب، ويتكاثر عليه الرجال لتغطية جسده بها وهو يزأر كأسد غاضب. ثم يختفى بها فى جحره بجوار سور قصر الباشا، وما هى إلا فترة وجيزة، ويخرج من جُحره مرة أخرى عارياً تماماً، ويجدون الرداء وقد حوله إلى خيوط منفوشة وضعها «كفرشة» على أرض الجحر.

ولم تتوقف حكاية«أبو تقى» عند هذا الحد بل تصادف أن إلتقى بكامل والراوى خلال نزهة بالحمار، وتوجه إليهم، فتوقف الحمار حتى اقترب «أبو تقى» أكثر، ثم مد يده بقطعة الخبز التى يحملها فى يده، فأعطى الراوى قطعة منها، فقال كامل خذها فأخذها الراوى مبتسماً ابتسامة ممزوجة بالتوجس والقلق، فقال له كمال ضاحكاً ـ ديه بركة ما ترميهاش.

وتواصلت الفسحة فى اتجاه الطريق المؤدى للفيلات وقصر الباشا، فطلب الراوى من كمال المرور من هذا الطريق فهو ممهد بصورة أفضل، وأكثر تنسيقاً وجمالاً، فرفض كمال باعتباره طريق خاص، وتحت ضغط الراوى وجه الحمار إلى الطريق الجميل، فتوقف الحمار ورفض الحركة بإصرار رغم عقاب كمال له «بالخرزانه» بشده، واستدار الحمار رغم الضرب، وعاد مسرعاً فى اتجاه طريق الفلاحين، فتعجب مما حدث واستغرب، «حتى الحمار يلتزم بقوانين وأعراف القرية، ويرفض مخالفتها»!!

وعادا إلى المنزل وهو يحمل فى يده قطعة الخبز هديه «أبو تقى» فهلل كل من بالمنزل ضاحكين، وهم يباركون له، وهو فى دهشة لماذا المباركة على قطعة خبز لن تؤكل؟ ـ ولكنه لمح أحد العاملين «الفراشين» بمدرسة والده حضر من المنصورة خصيصاً وهو يبارك له أيضاً، قائلاً نتيجة الإبتدائية ظهرت ونجحت مبروك، وصاح كمال ضاحكاً «بركاتك يا أبو تقى».

وللراوى قصيدة خاصة عن «أبو تقى» فى ديوانه الأول « البرستو» عبر فيها عن تجربته معه.



نقلة كبيرة

نقلة كبيرة بعد حصول الراوى على الشهادة الإبتدائية عام ١٩٤٦، مع انتهاء الحرب العالمية الثانية فقد رأى الوالد أن تحويله إلى المدرسة الأميرية أى الثانوية الحكومية بالمنصورة سيكون لصالحه لإبعاده عن المحيط المحدود، لوجود المنزل فى نطاق مبنى المدرسة، الأمر الذى يحدْ كثيراً من اختلاطه بالآخرين، وبمجتمع أوسع وأكثر شيوعاً وكان لذلك أثره فى تكوين شخصيته بدون شك.

فالمعروف عن مدرسة المنصورة الثانوية أنها منذ إقامتها كانت واحدة من أجمل مدارس القطر المصرى كمبنى، وأكملها تجهيزاً، مع تزويدها بمجموعة من خيرة الأساتذه فى كافة التخصصات، لذا كانت رؤيتها ودخولها للمرة الأولى من اللحظات المحفورة فى ذاكرة الراوى،فكل ما رأه كان على هواه، لحبه للجمال والنظافة، فالمدرسة رائعة الجمال، مبانيها من القرميد الوردى، والنوافذ الضخمة، والأرضيات والدرج من الرخام «الكرارة» الإيطالى الأبيض وحواجز الدرج من «الكريتال» المشغول بأشكال هندسية، يعلوها غلاف خشبى لامع – ذكرته بدرج منزل جده شافعى – أما الأثاث فهو أضخم مما كان يجلس عليه بمدرسة والده،ومن الواضح أنه مصنوع من نوع فاخر من الأخشاب حتى أنه تمنى لو كانت امكانيات والده المادية تسمح بتحويل «مدرسة الأمة» إلى مثل هذه الفخامة – وأن تكون مساحة ملاعبها الرياضية بمثل اتساع ملاعب هذه المدرسة، فلم تكن الملاعب جميعها داخل أسوار المدرسة،بل كان الأمر يتطلب الخروج وعبور «ترعة أم جلاجل»(*) للوصول لما يشبه النادى الرياضى التابع للمدرسة. والمخصص لملعب كرة القدم، وبعض ألعاب القوى الأخرى.

(*) حالياً لا وجود لترعة أم جلاجل أو المزارع المحيطة بها وتحولت جميعها لطرق وعمارات سكنية وزحام بما فى ذلك الملاعب التابعة للمدرسة الثانوية.

ولم تتوقف المفاجـأت فأثنـاء جولتـه التفقدية للمكـان فـى «الفسـحة» لفت نظره فـى أحـد الممـرات المتطرفـة بالـدور الأرضـى مـن المبنـى عـدد مـن الرجـال، يرتدون الملابس البيضاء وعلى رؤوسـهم غطـاء أبيض مثـل الـذى يرتديـه الطهـاه فـى الفنـادق والمطـاعم الراقيـة، والمكـان تنبعـث منـه رائحـة الطهـى، وكـانـت المفاجأه أكبر حين أُخبِر بـأن التلاميـذ يتنـاولون وجبـة سـاخنة قبـل انصـرافهم، فدفعه حب الاستطلاع الفطرى للبحث عن إجابة لتساؤل منطقى، وأين يجلس هذا العدد الكبير لتناول وجبة سـاخنة؟ فأشار لـه أحـد الطهـاه لقاعـة مجـاورة، فدخلها ليفاجأ بعدد كبير من الطاولات الممدودة، المجهـزة وتبـين لـه فيمـا بعـد أنها مقسمة لمجموعات صغيرة، كل منهـا سـتة أفـراد، توضـع أمـامهم الأطبـاق وأدوات الطعام، ويقدم لهم فـى أوعيـة مـن المعدن اللامـع مـن الصـلب «إسـتنلس سـتيل» تكفـى سـتـة أفـراد مـع الخبـز وسـت حبـات مـن الفاكهـة المتاحـة، «ولا يسمح للطلبه بمغادرة المدرسة قبل الانتهاء من وجبه الغذاء».

هكذا كانت الرعاية الصحية بالتلاميذ. أما النشاط الرياضى فالاهتام بـه يظهـر بعـد العصـر، حيـث تتحـول الملاعـب إلى «خليـة نحـل» ومجموعـات مـن التلاميـذ تتـدرب علـى كافـه الألعـاب، ومجموعـات أخـرى للتـدريب العسكرى«الفتوه» وأخرى للنشاط الكشفى أو «الجوالـة» أمـا مسـتوى التعليم فله حكايات أخرى استكمالاً «لكان يا مكان».



قِفْ لِلمُعلم

ما أروع تلك الكلمات!! فَفضل المعلّم على تلاميذه لا يقدره إلا من حُرِم من نعمة التعليم، فنشأ أميّا أو جاهلا، وحرم من نعمة القراءة والحساب والإطلاع على إبداعات المبدعين وعلم العلماء معتمداً فقط على ما يسمعه من الأخرين تلقينا. وما أكثر ما به من خرافات وعادات تضر ولا تَنفع.

كان اليوم الأول بمدرسة المنصورة الثانوية له مذاق خاص، فغرفة الدراسة فسيحة وجدرانها لامعة وزجاج النوافذ لاتشوبه شابه، والمقاعد مجددة ونظيفة، وكان الراوى ينظر إليها نظرة خبير- فطالما عاون النجارين فى صيانة أثاث الفصول صيفاً بمدرسة والده، كما كان يستمتع بالمساهمة بتجديد دهانها أيضاً، وكان انبهاره لاختلاف مساحة فصل الدراسة، ونوعية الأثاث وفخامته، مقارنة بأثاث المدرسة الإبتدائية. أما الزملاء من التلاميذ فلم يجد بينهم أيا من زملائه فى المرحلة الإبتدائية، كما لاحظ، أن جميعهم كان يرتدى الزى الكامل، وقلة منهم مازالت تحتفظ بإرتداء الطربوش، وبينما الزملاء منهمكون فى التعارف والأحاديث المختلفة، أنهمك هو فى تفحص الوجوه والأشياء، فنادراً ما خاب حكمة على الأفراد بعد تفرس وجوهم وسماع أحاديثهم لأول مرة حتى يقرر طبقاً لانطباعه الأول من يمكن مصادقته منهم، ومن يُفضل الابتعاد عنه.

وبينما الأحاديث الخافته مستمرة، وقلة من الزملاء وقوف والأخرين جلوساً دلف من الباب أحد الأساتذه بحلة مهندمة، وعلى رأسه الطربوش الأحمر، فوقف الجميع احتراماً لمقدمه دون أن ينطق بالكلمة الشهيرة «قيام» وبعد هدوء الحركة، وضع الأستاذ ما فى يده من أوراق على الطاولة الخاصة به، وبدأ فى تفحص التلاميذ للحظات، وأشار لهم بالجلوس وجلس هو أيضاً متناولاً كشف الأسماء، وبدأ ينادى الاسماء بصوت مسموع، فيقف التلاميذ مرددين كلمة «أفندم» وجاء دور «الراوى» فنهض مبتسماً «حاضر يا أستاذ»،

فتأمله الأستاذ للحظة متفحصاً، ثم تابع بقية الأسماء لحصر الغياب، ثم بدأ بتعريف نفسه «أنا معلمكم للغة العربية فياض العدوى» وأمل اهتمامكم باللغة العربية، فهى لغة جميلة، ويكفى أنها لغة القرآن الكريم، وبدأ يسأل بعض التلاميذ عما درسوه بالمرحلة الإبتدائية وما حفظوه من الشعر أى «المحفوظات»، فكان البعض يجيب بطلاقة خاصة فى أبيات الشعر، وتلعثم البعض الأخر وجاء دور الراوى فألقى الأبيات التى تبدأ بـ

مشى الطاوس يوماً بإختيال فقلد شكل مشيته بنوه

حتى وصل إلى قول الأبناء للطاووس

فعَدِلْ مشْيك المختال وإعدل فإنك إن عدلت معدّلوة

فسأله من قائل هذه الأبيات فذكر له إسم الشاعر «الأصمعى» على الأرجح، ثم سأله ما المقصود بتلك الأبيات فأجاب بإختصار «القدوة» وأهمية قدوة الأباء للأبناء، فابتسم الأستاذ فياض قائلاً أحسنت، ومنذ هذه اللحظة أصبح الأستاذ فياض – رحمه الله- هو أحب المدرسين إليه، ولا يقل حباً عن حبه للأستاذ عيد بالمدرسة الإبتدائية، وكما هى العادة زاد حبه للغة العربية من حبه لأستاذ المادة.

وتوالت الحصص ودخول الأساتذه، الأستاذ فوزى للعلوم، والأستاذ «منجى» للغة الانجليزية، ومن الطبيعى التفاوت بين الأساتذه فى أسلوب الشرح والتعامل مع التلاميذ كان معظمهم والحق يقال –محبين لتلاميذهم، ويؤدون عملهم بالتزام وإخلاص، ولكن الراوى له نظرته المتفحصة وتحليله لطريقة شرح كل أستاذ لمادته –خاصة أن والده «حضرة الناظر» فى المرحلة الإبتدائية كان من أساتذه اللغة الإنجليزية، وكان يحل محل الأستاذ «معاطى العواد» فى حالة غيابه لأى سبب من الأسباب، وكانت المقارنة بين أسلوب والده فى الشرح ونطق اللغة الأنجليزية، وأسلوب الأستاذ معاطى مقارنة قد تكون متحيزة أو حتى ظالمة للأستاذ معاطى، فأنتقل هذا التحيز والمقارنة غير المحايدة فى حكمة على الأستاذ «منجى».

ومن المواقف الطريفة أن الوالد سأله من يدرس اللغة الإنجليزية، بمدرسة الثانوية فأظهر له عدم رضاه عنه دون ذكر اسمه.

وفـى أحـد الأيـام فـى فـترة الاضـرابات الطلابيـة المتكـررة، التـى تنـادى بالاستقلال التام،وكان يترتب عليها تكرار غلق المدارس الثانوية «لأجل غير مسـمى»، فكـان يمضـى الوقـت بمدرسـة الوالـد الإبتدائيـة وأحيانـاً يشـارك المدرسين كمعاون فى شرح المادة، خاصة «الدروس الفنية كالرسم والأشغال اليدوية»، وفوجئ الراوى بأن الوالد يطلبه للذهاب لغرفته، وكانت المفاجأة أن الأستاذ «منجى» مدرس اللغة الأنجليزية الذى انتقده موجود فـى ضيافة والـده، وبـادر الوالـد بسـؤاله مـا قلتليش مـين مـدرس اللغـة الأنجليزيـة إللـى بيدرسـلك وشـرحه مـش عاجبـك؟ فأرتبـك الـراوى وأُحـرج بصـورة غـير مسـبوقة، وأنقذتـه سـرعة بديهتـه فقـال للوالـد كنـت أحـدثك عـن مـدرس العلـوم لأنـه لا يهـتم بالدروس العملية فى المعمل، أما مـدرس اللغـة الإنجليزيـة فهـو الأسـتاذ «منجـى» طبعاً وهـو غنـى عـن التعريـف. وقـام بتحيـة أسـتاذه بحـرارة وهـو يتصـبب عرقـاً، ولاحظ ابتسامة ذات معنى على وجه والده، وكأنها قبول «للكذبـه البيضـاء» للخروج من المأزق. وحمد الله على أن الوالـد لم يـذكر للأسـتاذ منجـى أن مـن ضمن نقده للأستاذ أنـه « يأكـل السـاندوتش بالفصـل، وإلا كـان قـد افتضـح أمره، وسيفهم الأستاذ منجى» أنه المقصود وليس الأستاذ فـوزى، وعمومـاً فقـد كـان هـذا المـأزق مـن الـدروس المسـتفادة، وتعلـم منـه أن يحـتفظ برأيـه لنفسـه أحيانـاً، وأن احتمـال أن يكـون أى مـن أسـاتذته مـن أصـدقاء أو معـارف الوالـد بحكم موضعه بين أصحاب المهنة الواحدة.

وكان من الطبيعى بعد هذا الموقف أن يدور حوار مطول بين الوالد والـراوى عن الكـذب والكـذبة البيضـاء، أم أن الكـذب هـو الكـذب، وانتهـى النقـاش دون الحسم برأى قاطع.



حكايات كل صيف

تميزت مدينتا دمياط والمنصورة بقربهما من مَصِيف «رأس البر»، حيث يلتقى فرع دمياط للنيل بالبحر الأبيض المتوسط بين شاطئ رأس البر فى الجانب الشمالى الغربى «وعزبة البرج» فى الجانب الشرقى فى منظر ساحر صيفاً وشتاءً. ففى الصيف وقبل بناء سد أسوان وبعد وصول الفيضان يفتح «سد فارسكور الترابى» لتندفع مياة الفيضان الحمراء لتصب فى البحر الأبيض المتوسط حاملة معها كميات هائلة من طمى النيل والعوالق الأخرى، التى تجذب أنواعاً عديدة من الأسماك، وخاصة «السردين»، فتغادر مراكب الصيد الكبيرة التى تزخر بها المنطقة إلى عرض البحر، وتعود محملة بأطنان من السردين والأسماك الأخرى، ويبدأ موسم الصيد الصيفى الذى ينتهى عادةً «بالأفراح والليالى الملاح»، حيث تكثر الزيجات مع زيادة الخيرات التى يجود بها البحر .. وسبحان موزع الأرزاق.

ومصيف «رأس البر» كان حين ذاك ينفرد بطابع مبانيه، والحياة الطبيعية، بعيداً عن المبانى الشاهقة، وزحام السيارات. فكان تصميمها عبارة عن شوارع طولية وعرضية، بها قواعد مبنية على الرمال بارتفاع عدة درجات فقط، وغرف مبنية تستخدم كمطبخ وأخرى للحمام. أما باقى الغرف فعبارة عن أعمدة خشبية تغطى من الداخل والخارج بحصائر من «الكيب»، وهو نوع من النباتات البحرية كالبردى التى تكثر على شواطئ البحيرات، فيتم تجميعها وتجفيفها وجدلها بالحبال على شكل «حصائر» تغطى بها الأعمدة الخشبية الرأسية والعرضية المائلة، وتوثق جيداً فى طبقتين خارج الغرفة وداخلها، وتجهز الغرفة بباب خشبى متواضع وكذلك النوافذ، فتظهر العشة فى النهاية كفيلا من نوع فريد، وجميعها لها «فرندات» خارجية كبيرة تؤثث بالكراسى «الأسيوطى» وبعض الطاولات، وباب العشة يغلق «بعصفورة» وهى عبارة عن قطعة خشبية يتوسطها مسمار يسمح لها بالحركة لتمنع الباب من

عبث الهواء به ـ وليس عبث اللصوص ـ فالمدينة آمنه، تماماً ولم يسمع الرواى أو غيره من المترددين عليها كل صيف ولمدة سنوات طويلة بوقوع حادث سرقة واحد برغم عدم استعمال الأقفال- وترك الملابس والأثاث بالفرندات فى متناول أى لص حتى ولو كان عديم الخبرة ـ فهكذا كنا!! وكيف أصبحنا؟!

وعلى الرغم من تواضع الصورة العامة للمكان فكان يميزه عدم السماح لدخول السيارات لشوارع المصيف، وتقف خارج حدود المنطقة السكنية بالقرب من منطقة «الجربى»، وهى على النيل وبها المخازن التى تخزن بها أخشاب «الفيلات والكيب» شتاءً ليعاد تجميعها وإقامتها فى الصيف التالى.

أما عن وسيلة المواصلات الوحيدة فهى« الطفطف» وهو على شكل قطار بدون حوائط خارجية، من عربة واحدة تجره سيارة «جيب» مكشوفة، فطبيعة المكان ترفض القيود والحواجز بكافة أشكالها، أما الملابس فهى ملابس البحر نهاراً، ويتجمع المصطافون على شاطئ البحر الذى ينتهى «باللسّان» وهو حاجز خرسانى وكتل أسمنتية كبيرة داخل البحر لتحمى شاطئ رأس البر من التأكل نتيجة اجتماح الأمواج له من حين لأخر وخاصة فى الشتاء.

أما الشاطئ فهو زاخر بتشكيلة رائعة من البشر، منهم الأدباء والكتاب الصحفيين والفنانين، فمن المألوف أن تمر فترى فى ظل «الشماسى» السيدة أم كلثوم، وإلى جوارها محمد التابعى، أو السنباطى، أو أحد كبار عائلة أباظة، أو بطل المانش عبد المنعم عبده، والعديد من الأجانب المقيمين بمصر، المصريون بالمولد، ويتحدث الكثيرون منهم العربية بطلاقة «كاليونانين والأرمن»، والكل يمضى النهار سباحة فى البحر أو يستمتعون بحمام الشمس فى بساطة وحميمية دون خوف من تحرش أو إساءة أدب، ويمر الباعة بين الشماسى لعرض العوامات، وبعض المشغولات اليدوية، أو لبيع المرطبات، و«الجيلاتى» الشهير من «محمد عيد أبو شَنَبْ حَديد»، كما يمر الباعة فى الصباح الباكر ب«الكومادس» وهى «الزلابية» بالعسل أو السكر البودرة، كما يمر بائع «الفزدق» والسميط والمعجنات الأخرى، دون إزعاج للمصطافين انتظاراً لمن يناديه دون أن يفرض نفسه على أحد.

أما فى المساء فيتحول معظم المصطافين إلى ممشى شاطئ النيل، حيث

ترسو مراكب الصيد وقوارب النزهة لمن يرغب فى نزهة نيلية، وطريق الممشى زاخر بالمطاعم والمحلات المتنوعة لبيع كل ما يحتاجه المصطافون، كما يوجد عدد غير قليل من الفنادق لمن يفضل الإقامة فى الفندق أو من ليس له عشته الخاصة، ومن أشهرها سيسيل، وأصلان، والأوبرج، ويستمر هذا الممشى الرائع فى اتجاه البحر لتضيق المسافة تدريجياً، وخاصة فى الجزء المسمى«بالمنطقة الأولى» التى تتميز بأن « فيلاتها» ترى البحر واالنهر معاً، ثم يتم اللقاء بينهما(هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) فى منطقة «اللسان»أو كاسر الأمواج لحماية الشاطئ من التآكل.

وهناك دار عرض سينمائية واحدة لا يتذكر الراوى اسمها وتقدم على مسرحها أحياناً بعض المسرحيات لبعض الفرق المسرحية المعروفة، كما توجد أيضاً نوادى ليلية منها «فواييه» أو «مارين فؤاد»، ويعزف فيها بعض فرق موسيقى الجاز لتقدم الموسيقى الغربية الراقصة، ورودادها فى معظهم مصريين من أصول أوربية، ويهود وغير قليل من المصريين المسلمين أيضاً الذين يجذبهم الملهى بتقديم فقرات من الغناء والموسيقى الشرقية، وخاصة للمطربة الصبية «نجاة الصغيرة» التى تؤدى أغانى كوكب الشرق أم كلثوم ببراعة لافته للأنظار والأسماع، وكان الراوى من المواظبين على سماعها كل ليلية بانتظام طوال استمرار فقرتها، ودون الاهتمام بالرقص الغربى، على الرغم من أنه يجيده، وله من يشاركه فيه من فتيات المنصورة، أو أقارب زملائه بنادى هواه الموسيقى والتمثيل.

وهكذا كانت الحياة فى مصيف رأس البر المتفّرد، وليس هذا كل شئ فهناك المزيد من الومضات تأتى من هناك.



المعسكر الكشفي

خارج حدود المنطقة السكنية لرأس البر، وفى إمتداد منطقة الجربى من النيل حتى شاطئ البحر، كانت تتواجد منطقة رملية صلبة مجهزة طبيعياً دون عوائق، كانت تسمح بهبوط الطائرات المروحية الصغيرة ذات المحرك الواحد، وكان يهبط به أحياناً بعض الطائرات الخاصة، يستخدمها أصحابها للسفر بين رأس البر والقاهرة على الأرجح، أو بين رأس البر والأسكندرية لبعض الأسر المعروفة التى تفضل قضاء شهور الصيف متنقلين بين القاهرة والمصيفين.

وبالقرب من أرض المطار، كانت مساحة أخرى مخصصة للمعسكرات الكشفية للمدارس، أو للجمعيات الخيرية التى ترعى الأيتام، كانت تسمى «بالملاجئ». وكان الأستاذ أحمد أبو ليلية المعاون والمشرف الرياضى لمدرسة الأمة يحرص على إصطحاب فريق الكشافة، أو بعض أعضاء «الأقسام المخصوصة التى يُهْتم بها رياضياً بشكل خاص ـ للمشاركة فى المعسكر الكشفى برأس البر، فتتوجه مجموعة خاصة تنصب الخيام،ومعدات المعسكر بما فى ذلك أدوات الطهى، وبعض المأكولات الجافة كالأرز والبقول والمكرونة، فتقوم بنصب الخيام والمظلة الكبيرة التى يوضع أسفلها عدد من الطاولات والكراسى القابلة للطى، المخصصة لفترة الطعام، ثم يستقبل المعسكر باقى المشاركين فى اليوم التالى.

وكان الراوى يفضل الانضمام للمعسكر رغم إقامة الأسرة بكاملها «بالعشة» على مقربة منه، فالحياة الكشفية كانت تمنحة فرصة قضاء وقت أطول مع الأصدقاء والزملاء، ليمارسوا معاً بعض الألعاب الرياضية، ويقيموا مساءً حفلات السمر، يشاركهم فيها أحياناً أفراد من المعسكرات المجاورة. وكان الراوى يستمتع كثيراً حين تنضم إليهم الفرقة الموسيقية لملجأ الأيتام، حيث يجيد أفرادها العزف على ألات النفخ بصورة خاصة كلارينت والساكسفون والألات النحاسية الأخرى، ويقوم البعض الأخر بأداء بعض

الاسكتشات الفكاهية، وتمضى السهرة لبضع ساعات فى هذا الجو الفنى الثقافى، وأحياناً تبادل الأراء والمناقشات، أو الإعداد لأنشطة اليوم التالى. وتوزيع مسئوليات الخدمات المختلفة كالحراسة وهى مهمة رمزية أو شكلية فالمكان أمن تماماً كعرف سائد فى المنطقة، أو مهمة الطهى وإعداد الأطعمة التى كان يتهرب منها الكثيرون، مع أصرار من يقبلون هذه المهمة أن يكون معهم «الراوى» ـ باعتباره ابن حضرة الناظر ـ فيستخدم سلطاته فى الاهتمام بجودة ونظافة الأطعمة والاصرار على تنقية الأرز والعدس قبل الطهى، وغسيل الخضر جيداً، وانتقاء الأسماك الطازجة، وأخذها للفرن لشيها بتوصية خاصة من صاحب الفرن، حيث تربط بينهما معرفة من سنوات الطفولة بإعتبارة «زبون» دائم.

وكان الراوى يقبل هذه المهمة بطيب خاطر برغم إنها تحرمه من المشاركة فى السباحة صباحاً، والمشاركة فى بعض الأنشطة الأخرى.

وأرض المعسكر بين البحر والنهر، وبالقرب من منطقة «الجربى» على شاطئ النيل، وكلا الشاطئين يعج بمحترفى صيد الأسماك بالشباك، ففى البحر يتم الصيد بالشباك الطولية. التى يمتد طولها لمئات الأمتار، تقوم بإلقائها فى مياة البحر سفينتا صيد تسبق إحدهما الأخرى وبعد الإلقاء بالشباك تتجهه كلتاهما أو تتجهان صوب الشاطئ لأقرب مسافة يسمح بها عمق المياة. وتقوم مجموعة من الصيادين بسحب الشبكة العملاقة للشاطئ تدريجياً، فترتفع فوق المياة ويظهر ما تحمله من أسماك، فيبدأ الرجال فى تجميعها فى عبواتهم «المشنات» التقليدية المصنوعة من جريد و أوراق زعف النخيل، ومشاهدة هذه التجربة كانت تجذب الكثير من المصطافين بمختلف أصولهم ودياناتهم، البعض منهم لمجرد الفرجة والاستمتاع، والبعض الآخر لشراء ما يحلو له من خيرات البحر.

ومن ذكريات مشاهدة الصيادين وهم متعاونون يسحبون. الشباك العملاقة من البحر، والبعض الأخر يجمع الأسماك الطافية فى الشباك لنقلها إلى السلال صورة أحدهم وهو يحاول تخليص واحدة من «الكابوريا» أو كما يسميها أهل الشام «السلطعون»، وكانت كبيرة الحجم إلى درجة يندر تكرارها، ففاجأته بضربة شديدة من كلابات ذراعيها فى منطقة الأوردة

أعلى الكف، فأنفجر الدم من زراعة بصورة مفزعة، ولحسن حظة كان عدد من أعضاء المعسكر الكشفى ضمن المشاهدين، فأسرع أحدهم وأحضر حقيبة الأسعافات الأولية، وقاموا بتطبيق عملى لما تدربوا عليه، فقاموا بتطهير الجرح بالمواد المطهرة،وأضعفها كان «الميكركروم»، وتم تغطيتة بالشاش المعقم، ثم القطن وربطة برباط الشاش بطريقة جيدة، وبعد ماناله الفريق المعالج من شكر وتحية وهم يلقبون «أطولهم قامة» «بالدكتور» مازحين فتقمص دور الطبيب قائلاً فى صرامة (لازم يروح المستشفى الجرح محتاج غرزتين).

أما الصيد فى منطقة «الجربى» من النهر فكان الأسلوب يختلف حيث يتم بالشباك المستديرة، التى ينتهى محيطها بقطع صغيرة من الرصاص، تساعد على بسط الشبكة عقب إلقائها بقوة فى اتجاه المياة بحرفية، لا يجيدها إلا صياد متمرس، وتندفع الشبكة للعمق، جامعة داخلها ما تصادف وجوده من خيرات النهر، فيسحبها الصياد إلى الشاطئ،ويفرغ ما بها من أسماك، ثم يعيد الكرة وهكذا. ومن الطريف أن بعض الصيادين كان يمارس لعبة أو رمية «أنت وحظك»، فيتفق مع البعض الواقفين على أن يلقى الشبكة لحسابهم، مقابل مبلغ يتفق عليه كان فى الغالب لا يتجاوز قرشاً واحداً أو قرشين ويكون ما يجود به النهر من هذه «الرمية» من نصيب الزبون، ومن الطبيعى أن تخرج فى معظم الأحيان خالية نتيجة تكرار «الرميات» مما يدفع بالأسماك للهروب بعيداً.

وكان للرواى صديق من دمياط، خبير فى قراءة سطح مياة النهر، فكان يشترط على الصياد ألا يلقى الشبكة إلا فور أن يطلب منه ذلك، وفى الأتجاه الذى يحدده له، وكان الصياد يقبل هذا الشرط على مضض، وربما يطالب برفع قيمة «الرهان» إلى قرشين بدلا من قرش واحد. وكثيراً ما انتهت الرمية بصيد أسماك معدودة من السردين، أو أنواع أخرى صغيرة الحجم. ومن المضحك أنه فى إحدى المرات كانت الشبكة تحتوى على عدد من «الكابوريا» صغيرة الحجم جداً، وواحدة فقط كبيرة، فطلب صديق الراوى من الصياد إعادتهم جميعاً للماء قائلاً «خليها تربى أولادها» وسط ضحك المشاهدين.

وحيث أن منطقة الجربى وقبل وصول فيضان النيل كانت مياهها مالحة ودون أمواج، فقد كانت مناسبة لتدريبات السباحة، فكثيراً ما تواجد محترفو السباحة لتدريب أبناء المصطافين، وكان أبرزهم البطل «عبد المنعم

عبده» وهو أحد أبطال مصر فى سباحة المسافات الطويلة ،ممن اشتهروا بعبور بحر «المانش»الفاصل بين إنجلترا وفرنسا ، وكانت شهرتهم عالمية لتحقيقهم أرقام قياسية فاسموهم «تماسيح النيل».

ويرى الراوى - أن مثل هذه النجاحات جديرة بالتسجيل ليتذكر القراء الأعزاء- خاصة الشباب منهم- أن لمصرهم الحبيبة تاريخاً مشرفاً فى كافة المجالات، يلزم تسليط الأضواء عليه من حين لأخر، حتى لا ننسى فى خضم الأحداث والعثرات التى نتعرض لها ، فقلة هم من يتذكرون «تماسيح النيل» أبطال سباحة المسافات الطويلة أولهم البطل إسحاق حلمى أحد رواد سباحة المسافات الطويلة فى العالم قد عبر المانش عام ١٩٢٨ ، والبطل حسن عبد الرحيم وعبره عام ١٩٤٨ ، ثم مرعى حسن حماد عام ١٩٤٩ ، وجاء بعدهم «الأسطورة» عبد اللطيف أبو هيف عام ،١٩٥١ حيث شارك فى بطولات عديدة بعد ذلك، كان أهمها سباق «مونتريال» فى مياة كندا الباردة، وهو سباق يتكون كل فريق فيه من بطلين ويكمّل أحدهما المشوار من نقطة نهاية زميله، وبدأ أبو هيف أولاً ،وعند وصوله لنقطة مشاركة زميله لإكمال المسافة الباقية تبين أنه قد انسحب من السباق لوعكة صحية ألمت به فرفض أبو هيف الانسحاب وأكمل السباق لنهايته منفرداً، وإستغرق ذلك «تسعة وعشرين ساعة» فى السباحة المستمرة، ومن المذهل أنه حصل على المركز الأول، فحصل بعدها على لقب «أعظم سباح مسافات طويلة فى التاريخ».

أما بطل المانش السباح عبد المنعم عبده فكان من أصغرهم سناً وعبره عام ١٩٥٢ ، وكانت شهرته الخاصة فى دمياط ورأس البر، لتواجده الدائم وسط المصطافين بجسمه الرشيق المتناسق، وملامحه الجميلة ، وزى البحر المميز بلونه غير المألوف، وتهافت الفتيات للحصول على صور فوتوغرافية معه، وكأنه أحد معالم مصيف رأس البر. وكان يستعرض مهارته فى السباحة بمنطقة الجربى، فيقلد «الدرافيل» فى سباحتها، وكأنها ترسم أقواساً هبوطاً وارتفاعاً أسفل وفوق سطح المياة، وسط إعجاب وتصفيق المصطافين.

وقبل الانتقال إلى مكان أخر يلح على سؤال لا أجد له إجابة ـ أين ذهب إتحاد سباحة المسافات الطويلة؟ ولماذا أصاب العقم تماسيح النيل؟!!.



الفطاطري وقهوة دعدور

من معالم رأس البر فى منطقة السوق، ومجموعة من المطاعم والقهاوى، كان أشهرها الفطاطرى وقهوة دعدور، وكلاهما يقدم الفطائر الحلوة والملحة على الطريقة الدمياطى الشهيرة، بالإضافة إلى المشروبات وخاصة الساخنة، ومنها لبن الحليب الجاموسى كامل الدسم، الذى يفضله البعض ليعوض المجهود العضلى طوال النهار فى السباحة، وفى الأنشطة الشاطئية والسير لمسافات طويلة على الشاطئ البحر، أو كورنيش النيل، فطبيعة المكان تبعث على النشاط والحركة الدائمة.

والتنافس بين «الفطاطرى» و«قهوة دعدور» كان نموذجاً للتنافس الشريف، وكانت نتيجتة فى صالح العملاء المترددين على كليهما. فكانت الجودة والنظافة وراحة العملاء شِعَار المكانين والترحيب بهم فى حفاوة. أما عن قهوة دعدور فكانت تتفوق بأحد «جرسوناتها»، كان يلفت أنظار المترددين عليها بنشاطه الزائد، وسرعته وخفة حركته، وكانت طريقة مناداته لإبلاغ «النصبة» بطلبات الزوار موضع إعجابهم وتعليقاتهم، وكثيراً ما حاول الراوى أن يحسب عدد الكيلومترات التى يقطعها كل ليلة، فوجدها تزيد عدة مرات عن المسافة التى تفصل رأس البر عن مدينة دمياط. وقد حاول الراوى تذكر اسم هذا العامل المتفانى المخلص المحب لعمله ولم يفلح لعامل السن ومرور السنين الطويلة.

ومن ومضات الماضى وذكريات الصبا «لوكاندة» باريس المجاورة لفندق أصلان على كورنيش النيل، فقد تورط الراوى فى تحمل مسئولية المشاركة فى إدارتها فى صيف عام ١٩٥٠، بعد أن انتهى من امتحانات العام الدراسى الثالث بمدرسة المنصورة الثانوية، وسبب ذلك لا يخلو من الطرافة، حيث كان صاحب «اللوكاندة» وهو أحد أفراد عائلة «لبن» المعروفة بالمنصورة، وصديق للعائلة، كان فى ذمته قرض لوالد الراوى عجز عن

سداده، فاقترح عليه تولى إدارة اللوكاندة موسم ذاك الصيف، والحصول على الإيراد سداداً للمديونية، فأسقط فى يد الأستاذ أحمد، وسأل الراوى عن مدى إستطاعته المشاركة فى الإدارة رغم أنه فى سن الخامسة عشر فقط. فغلبته طبيعته فى حب تجربة كل جديد، وإنبرى لهذه المهمة رغم علمه بأن دوره سيكون ثانوياً، لأن مديرها وطاقم إدارتها موجود دون تغيير، مما يعنى أن السلبيات التى تعوق تحقيقها لأرباح قائمة، ظناً منه أن بشئ من الرقابة على الإيرادات والمصروفات والتنظيم قد يتغير الحال. وما حدث بعد ذلك يمكن اعتباره من الطرائف المعتادة فى عائلة بدر التى تجيد الإنفاق بطيبة تصل لحد السذاجة، ولا تأخذ بحكمة «القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود»، فمجرد علم الأسرة الكبيرة بأن الحاج أحمد أصبح له فندق خصوصى برأس البر، تحركت الوفود مهاجرين من المنصورة إلى مصيف رأس البر، وفى فترة وجيزه كانت نصف غرف «اللوكاندة» يشغلها العديد من أسر العائلة الكبيرة، وكان طبيعياً أن يصدر «كبير العائلة» التعليمات المعتادة بأن إقامة أفراد العائلة الكبيرة على حساب حضرة الناظر الحاج أحمد «فل بورد»، وكنتيجة طبيعية لم يتبق من الإيراد ما يكفى لسد أى نسبة من القرض ، بل استلزمت زيادة النفقات بيع أحد المنازل بشارع متفرع من «السكة الجديدة» وهو أهم الشوارع التجارية بالمنصورة. لسد العجز بين الإيرادات والمصروفات، ولم يقبل الأستاذ أحمد أى لوم أو عتاب قائلاً المهم الكل صيف وأمضى أوقاتاً سعيدة بتواصل الأسرة الكبيرة. وهكذا كانوا فى الزمن الجميل حيث التوحد العائلى، والاهتمام وصلة الأرحام أسلوب حياة، وإن كنا نراه الأن نوعاً من سوء الإدارة ونقص التنظيم، وحتى نوع من البلاهة فى عصر سطوة الماديات، ولاغرابة فى ذلك فالإنسان على مر العصور يؤثر ويتأثر بطبيعة المكان والزمان، وما تفرضه البيئة المحيطة به من عادات اجتماعية واقتصادية متغيرة، مع بقاء رواسب من القديم منها فى طبائع البشر، تتوارثه الأجيال كما هو الحال فى العديد من القبائل العربية وغير العربية، فيفرض العرف السائد قواعده، فتصبح فى قوة القانون الذى يحترمه الجميع ويطبقة تلقائياً دون تردد.



المَرْسَى النهري شجرة الدر

عَشِق العديد من شباب مدينة المنصورة من جيل «الراوى» مكتبة المنصورة، بموقعها الرائع على شط النيل مباشرة، فى منطقة هادئة من أجمل أحياء المدينة، فكانت تجذب العديد منهم للاستمتاع بالإطلاع على ما تزخر به من مراجع وكتب فى كافة مجالات الأدب والعلم. وكانت القراءة بها متعة حقيقية بهدوئها ونوافذها المطلة على مياة النهر الذهبية ساعة الغروب، وكان الراوى تأخذه روعة المنظر، فيخرج إلى الشرفة الخارجية المطلة على النهر فى اتجاه كوبرى «طلخا» الواصل بينها وبين المنصورة، يُمتّع نظره ويسبح الله على بديع خلقه بلون أشعة الشمس، وانعكاساتها على صفحة النيل، وإنسيابها من خلال الأقواس الحديدية للكوبرى، فتتشكل صورة أخّاذه من الجمال،فتحول صناعة الإنسان الصماء حين اختلاطها بأشعة الشمس الساحرة لوحة رائعة، كان يحرص على تسجيلها فى صورة فتوغرافية وبكاميرا متواضعة، تنقل الصورة باللونين الأسود والأبيض فقط، وشتان بين سحر الأصل والصورة الفتوغرافية.

فكم تذكر وهو يتأمل المكان ما عرفه من قراءاته بأن المبنى كان أصلاً استراحة نهرية مخصصة لزيارات الملكة «لشجرة الدر» زوجة الصالح نجم الدين أيوب، ويتخيلها قادمة لزيارة المدينة الجميلة، ويتخيل سفينتها النهرية راسية على الشط، والحرس والخدم ينتقلون بين السفينة والاستراحة، ويتذكر كم كانت «داهية» بإخفائها خبر وفاه زوجها، حتى لا يؤثر ذلك على الجنود المشغولين بأرض المعركة بمحاربة الفرنجة، ويتذكر زملاء الصبى ونزهة «شارع البحر» أى كورنيش النيل، وذلك دون أضواء السيارات، حيث عددها بالمدينة لا يتجاوز أصابع الكفين، حتى يصل إلى كافورة الزيات العملاقة أمام قهوة أندريا، ويعلوها نادى المنصورة للموسيقيين، الذى يضم رواد الموسيقى الشرقية بالمدينه وكثيراً ما زاره السنباطى، وسمع من والده أن

شجرة الكافور سميت باسم الكاتب والأديب المبدع الزيات حيث كان يشاهده كثيراًوهو جالس فى ظلالها منهمكاً فى كتاباته التى أثرت المكتبة العربية.

دار بخلد الراوى كل هذا وهو يتذكر ما أُلحق بالمكتبة من تحول لا يليق بقيمتها التراثية أو الأدبية فى عهد الرئيس مبارك، حين استولى الحزب الوطنى على جزء منها وحوله ملتقى لمجموعة انتهازيين ومحترفى السياسة عن غير علم مما أضر بها وقلل من أهميتها - بل وأدى إلى تكديس كتبها ومراجعها بصورة يصعب الاستفادة منها بسهولة ويسر. ثم كان ما كان أثناء تداعيات ثورة الشباب فى الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١، وما لحقها من فوضى وتخريب ممنهج لركوب الثورة، فأُحرق مقر الحزب، والتهمت النيران معه كنوز مكتبة المنصورة من مراجع نادرة متفردة، فلا غرابة أن صاحبنا أجهش بالبكاء وهو فى سن التقاعد حين سمع خبر احتراق المكتبة،

وعبر عما فى نفسه بكتابة قصيدة «حرقوا قلبى لما حرقوا المكتبة» فى ديوانه بالعامية «ما بَحبش كِده»(*).

هذا ما لحق بها وبالمدينة بأكملها وبغيرها من المدن، بفعل البشر، حيث راح كل واحد يتصرف على هواه بعشوائية فى غياب الدولة، وإنعدام التخطيط الحضارى للامتداد العمرانى المنظم، وأصبحت الحلول كفك مجموعة من الخيوط غير المتجانسة والمتشابكة والمعقدة، وتحولت مساحات كبيرة من أرضنا الخضراء الساحرة، إلى مجموعة من كتل المبانى الكئيبة بالطوب الأحمر المتراصة، دون تناسق أو استكمال، وتأكلت مساحات شاسعة من أجود الأراضى الزراعية، وهذا ما صدم الراوى فى زيارته مؤخراً للمدينة بعد غياب طويل، فكانت الصدمة فوق احتماله، حيث تجاوزت كثيراً ما قرأه وسمعه عن التهام المبانى العشوائية مساحات شاسعة من اللون الأخضر الدال على الثمار والحياة.

فأى حياة تلك التى تخلو من أى لمسة جمال لتتناغم مع بدع الخالق، حتى تستحق الحياة والتمتع بها كما أرادها الله لنا والتسبيح بحمده؟

(*) والذى أخطأ فيه فذكر أن المبنى كان قصر شجرة الدر بدلاً من مرسى واستراحة سفينتها النهرية.

أمر محير فعلاً!! أن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل، وإكتشف الكثير، وأقام مجتمعات حضارية لتوفير العديد من وسائل الراحة للبشر، هو نفس العقل الذى يلوث بيئته، واخترع وسائل الدمار للبيئة وللبشر. ولا أجد ما أقول غير « **قتل الإنسان ما أكفره**».



«منازل وأسماء»

المنصورة كان بها عدد من المنازل المميزة المعروفة بأسماء مالكيها كقصر الشناوى وفيلا الدكتور غيث ومنزل الجمل والقاضى والقريعى وسرور ولين لتميزها عن المبانى الأخرى أو شهرة أصحابها بإعتبارهم من العائلات الكبيرة الميسورة أو القديمة .

ومن هؤلاء عائلة القريعى وموقع منزلهم على «شارع البحر» ناصية شارع المدير، وهو بناء ويتميز بكبر مساحته ووجود حديقة صغيرة به على الجانب الأيمن من مدخله، وهو مكون من ثلاثة طوابق، يبدو أن الأرضى والثانى منهما كانا لإستعمال عائلة القريعى أو بعض أقرابها إلا أن إقامتهم بها لم تكن دائمة ، أما الدور الثالث وبه شقتين كبيرتين مؤجرتين ، واحدة منهما سكنها لفترة قصيرة أحد أفراد عائلة «رستم» وهى من العائلات الراقية وتميل إلى الطبقة الأرستقراطية ، والشقة الثانية كان يستأجرها أحد تجار القطن وكان يعتبر من أهم (الفريزه) وهى مهمّة تحتاج خبرة خاصة لتحديد نوع ودرجة جودة القطن وطول تيلته ، وهو الحاج أحمد حسن وهو والد واحد من أقرب الزملاء للراوى بالمرحلة الثانوية، وهو فؤاد أحمد حسن ، وشقيقه الأصغر فاروق كان يصغره بعامين وشقيقته و«فدية» كانت أكبر منهما ،أما الشقيق الأكبر كان مهندساً فى الكهرباء والألكترونيات وهو «المهندس أمين» وكان له دور أساسى فى تطبيق نظام الإتصال اللاسلكى لسيارات النجده - فى أول تجربة لها وخبراته فى مجالات الأجهزة الكهربائية والألكترونية كانت واضحة فى الكثير من الأجهزة بالمنزل، وكان بالمنزل جهاز تسجيل صوتى عبر الأشرطة فائق الجودة، على الرغم من تجميعه من مخلفات الأجهزة « بوكالة البلح ».

كما أعد للراوى لشقيقه فؤاد «بروجكتر» لتكبير الصور الفوتوغرافية بمجرد علمه بهوايتهم للتصوير الفوتوغرافى التى جمعت بين الصديقين وكانا

يقومان بتحميض الأفلام وطباعتها فى غرفة مظلمة على الورق الحساس وتحميضها وتثبيتها كل تلك الخطوات يعرفها المهتمون أو العمل بمهنة التصوير الفوتوغرافى، ومما تقدم تبين مدى إرتباط الصديقين الراوى وفؤاد وما يجمع بينهما من هوايات ومن أسرار .

أما عن الأسرار فلن «أخفى عليكم شىء» فقد كان الراوى معجباً لحد كبير «لا بل قل متيم» بجارته «ليلى» فى الشقة المجاورة وكانت واحدة من تلميذات مدرسة العائلة المقدسة المجاورة لسكن الراوى وهى واحدة ممن كان يلقى إليهن الحمام فيضحكن ربما لسزاجته أو قل حتى لمراهقته الواضحة ، وخاصة من يتعمد السير بجوار العربية الحنطور المخصصة لتوصيلها لمنزلها بعد إنتهاء اليوم الدراسى ليلقى تحت قدميها زهرات من أجمل ماتنتجه «البرجولة» بالمنزل ثم يكرر نفس الشىء ليضع الزهرات الحمراء غريبة الأشكال على درجات سلم منزل القريعى قبل عودتها للمنزل بدقائق لتلتقطها قبل دخول شقتها وكان على ثقة أن نوع الزهرات وجمالها لن تهون على أجمل زهرات المنصورة لتدوسها بقدميها ولابد أن تلتقتها وكان يراقب حدوث ذلك من العين السحرية بباب صديقه ، ويلاحظ إبتسامة خفيفة على وجهها وأحياناً هزة الرأس بإستغراب عن تصرفات ذلك المراهق الحالم وتصرفاته الساذجة والمضحكة فى نفس الوقت .

أما عن زهرة زهرات المنصورة وأجملها على الإطلاق فقد أصبحت بعد عدة سنوات من أشهر مذيعات التليفزيون أو مقدمات البرامج. إن لم تكن أشهرهن وهى الإعلامية المبدعة «ليلى رستم» والإعتذار واجب وإن كان متأخراً جداً عن تلك التصرفات الصبيانية ، ولكن يشفع للراوى أنه عاش عمره كله لاينسى تلك اللحظات البريئة الحالمة مما يدل على أنه كان ناشطاً صغيراً فى محراب الجمال والحب العذرى.

ورغم أن شقيقها الأصغر نبيل «رحمه الله» لم يكن من أصدقاء أو حتى معارف الراوى، بل كان له مجموعة من الأقارب والأصدقاء تغلب عليهم الطابع الإرستقراطى. إلا أن كلاهما كان يعرف الآخر شكلاً ونسباً ولا مانع من تحية عابرة، وكان آخر لقاء عابر لهما داخل أتوبيس عام من أتوبيسات «أبو رجيلة» بميدان التحرير بالقاهرة وكان قد تم تجهيزة

بميكروفونات للسائق يخاطب بها الركاب ويذكر إسم المحطة القادمة وكان نبيل قد تخرج من كلية الطيران المدنى وأصبح أحد طيارين مصر للطيران فداعبه الراوى قائلاً (مش أنتو بس محدش أحسن من حد) وتبادلا الضحك ومع ذلك كانت صدمة الراوى كبيرة حين سمع بوفاته فى حادث « الطائرة الكوميت » التى سقطت بإحدى الدول الأسيوية.

وفؤاد كان يتسم بالقوة والجرأة والميل للعنف عكس شقيقه الأصغر فاروق الذى كان يستضعفه زملاؤه لطيبته المفرطه ، وكان نتيجة ذلك إعتداء واحد من زملائه عليه بالضرب ومن سوء حظه وسوء حظ الراوى رءاه فؤاد فهم مدافعاً عن شقيقه الأصغر فأوسع المعتدى بالضرب المبرح وحين هم البعض للدفاع عن المعتدى أخرج فؤاد من جيبه «مطواه» صغير يستعملها فى برى الأقلام الرصاص محاولاً توجيهها لوجه واحد منهم فتدخل الراوى لإبعاده فما كان من نصيب المخلص أو المحجز إلا إصابته بكفٍ يده اليمنى بجرح طولى كبير تطلب عدة غرز بالمستشفى ومازالت علامته باقية حتى الآن .

وعلى عكس الراوى الذى كان يغازل ابنة الجيران بإلقاء الزهور تحت قدميها كان هو يلقى «البمب» الذى يكثر إستعماله فى رمضان والأعياد بجوارها ليفزعها ، كما أنه لاحظ عصر يوم أن طيور (الف بيرد) التى تحتفظ بها ليلى فى قفص جميل (بالبلكونة) المطلة على الكورنيش، خرجت من القفصٍ وبدأت تحلق فى المكان ، فنبها لذلك وهو يضحك ممسكاً (بالنبلة) محاولاً إصتياطدها لها وهى تصرخ باكية (بس حتموتهم) ولا غرابة فى أن فؤاد بهذه الصفات كان ميله التوجه لإحدى الكليات العسكرية ، وكانت كلية الشرطة من نصيبه .

وإنقطعت أخباره وأخبار العائلة بعد إنتقال الأسرة للقاهرة وضاعت فى الزحام إلا أن الصندوق الأبيض مازال يحتفظ بذكريات تلك الأيام بحلوها ومرها ، وخاصة أخبار زهرة المنصورة ليلى رستم الإعلامية الكبيرة متعها الله بالصحة والساعدة .



فيلا العبد باشا

من الأماكن التى كانت تجمع الراوى بعدد من الأصدقاء والجيران فيلا العبد باشا ، التى كانت تقع فى نهاية شارع المختلط مقابل مقر محافظة الدقهلية حالياً ، -قد لحق بها ما لحق بالكثير من الفيلات وخاصة بحى (توريل)- فهدمت ليحل محلها أبراج سكنية للاستفادة من الأرض المتزايدة أسعارها ، وتبدأ المعاناة من تكدس الشوارع بالسيارات واختفاء الحدائق وزيادة التلوث البصرى والسمعى، وتضيق الصدور بهواء يغلب عليه ثانى أكسيد الكربون بدلا من الأكسجين .

أما عن علاقة الراوى بهذا المكان علاقة قوية ذلك بسبب الزمالة والجيرة، فأما الزمالة فقد كانت مع اثنين من أفراد الأسرة ، كلاهما يحمل اسم محمد شقير، الأول هو محمد عبد الجليل حفيد العبد باشا من والدته، وإشتهر بإسم «شهبور» ربما للتشابه بينهما فى الشكل ، أما محمد شقير الأكبر فهو ابن عَمه ، وهو زميل الراوى بنفس العام الدراسى ، وكانا يستذكران معاً لقرب المسافة بين سكنيهما نفس الشارع (شارع المختلط) . وقد امتدت الصداقة مع «المحمدين» حتى مرحلة الجامعة ، بل ومشاركة أحدهم بالسكن بعمارة «إلهامى» حين فترة الجامعة بحى المنيل بالقاهرة لقربه من كلية التجارة « جامعة عين شمس (إبراهيم سابقاً) » بحى المبتديان المتفرع من شارع القصر العينى .

وتلك المرحلة يلزم الحديث عنهما فى الجزء الثانى من (الحكايات) لارتباطها بمرحلة الجامعة «والمتخمة» بالأحداث والطرائف والشجون.

ومرة أخرى آمل أن يكون فى العمر بقية لإفراغ تلك الومضات الفكرية على الورق الأبيض كحكايات، قد تجد من يهتم بقراءتها من الأحفاد كنموذج لاختلاف ظروف الإنسان، وتأثره بالمكان وإختلاف الزمان .



يوم تاريخي حقًا !!

كلمه نسمعها كثيراً فى مناسبات قد يغفل التاريخ عن تسجيلها، أو يتناسى لعدم أهميتها، وأيام أخرى تحفر لِنفسها مكاناً عميقاً بالتاريخ يصعب زواله أو تناسيه، وفى الصندوق حكاية من تلك الأيام الخالدة فى صيف عام ١٩٥٢، وبعد انتهاء امتحانات «التوجيهية» الثانوية العامة. خرج الراوى من أيام الامتحانات مرهقاً، وقد فقد من وزنه عدة كيلوجرامات، لاحظها أفراد الأسرة والأصدقاء، فاقترح الوالد أن يسافر لمصيف رأس البر مع بعض أصدقائه، على أن يلحق بهم باقى أفراد الأسرة بعد عدة أيام.

وعلى غير العادة لم يسافر الراوى بالقطار إلى دمياط، ثم بأحد للنشات التى تربط بين مدينة دمياط ومصيف رأس البر يومياً وعلى مدار الساعة، فتتحول تلك المسافة إلى رحلة نيلية رائعة، ولكنه لم يصبر لحلول موعد القطار التالى ففضل السفر «بالأتوبيس» ماراً بعدد من القرى والأراضى الخضراء المليئة بالزراعات الطبيعية لعلها تخرجه من حالة القلق من إنتظار النتيجة ويخفف من تعب الدراسة والإستذكار والامتحانات. وجلس بجوار النافذة شارداً فى الفضاء محاولاً إفراغ ذهنه من أسئلة الإمتحانات وإجاباته عنها.

وقف «الأتوبيس» بقرية فارسكو لإنزال بعض الركاب، ولصعود آخرين، ولاحظ الراوى تجمع عدد غير قليل من أهالى القرية أمام قهوة على الطريق، يستمعون بإهتمام للمذياع، فلم يهتم كثيراً بالأمر وإن كان ماشاهده أخرجه من حالة «التوهان» التى كان يعانى منها، وبعد لحظات تحركت الحافلة وبها بعض الركاب الجدد، فإذا بواحد منهم يخبر الركاب بأن الجيش قام بثورة ضد الملك فاروق، فأثار الخبر همهمات من البعض، ومناقشات من البعض الآخر بين مؤيد ومعارض، فلا شك أن الفلاح المصرى عانا أكثر من غيره فى عصر الإقطاع والحكم الملكى، ومع ذلك كان للملك كرمز للدولة محبة

برغم ما كان يشاع عنه من نزوات، وخلافاته الكثيرة مع حزب الوفد - حزب الأغلبية – إلا أن الملك فاروق كان له (كارزما) خاصة، وجاذبية يعجب بها البعض رغم ما يشاع ورغم المعاناة، وكارثة حريق القاهرة وما تركه من ردود أفعال.

سرح الراوى فى زحمة التساؤلات المعتاد- وماذا بعد؟- واختلطت المشاعر هل القادم سيكون خيراً للمصريين، أم صراعات وسفك دماء بين الثوار وباقى الجيش أو الحرس الملكى، أو ربما بين الجيش والشرطة؟ ولم يجد لتساؤله جواباً ،كثرت الحوارات، والتساؤلات بين ركاب الحافلة وبدأ يسمع اسم اللواء محمد نجيب قائد للضباط الأحرار وثورتهم «المباركة» على الملك، وماشاب عصره من فساد «ومحسوبية» وسطوه الاقطاع ورأس المال ومحاسيب القصر .

وظلت المناقشات والحوارات حول الراوى يسمعها فى كل مكان، البعض يرى الاكتفاء بالاصلاح السياسى والاجتماعى فى وجود النظام الملكى. وآخرون يرون إنهاء النظام الملكى فوراً وإقامة نظام جمهورى بالطابع الغربى الناجح.

ولم يمض اليوم التالى إلا وصدر قرار مجلس قيادة الثورة بمغادرة الملك فاروق البلاد بعد أن كان القرار الأول هو التنازل عن العرش لابنه الوليد (ولى العهد) أحمد فؤاد. وبدأت الصورة غير واضحة المعالم للراوى، فرأى من الأفضل العودة للمنصورة ليكون بجوار الوالد، فهو أقدر على تحليل الموقف وتوجيهه لخطواته التالية ، التى تستلزم تقديم أوراقه لإحدى الجامعات بالقاهرة، والدخول فى عالم جديد يجمع بين الابتعاد عن العائلة وتدبير أموره منفرداً من ناحية ، ومن ناحية أخرى الدخول تجربة التعليم الجامعى التى لابد وأن تختلف عن أسلوب المدرسة الثانوية.

بدأ التشاور مع عدد من الزملاء والأصدقاء ممن حصلوا على «التوجيهه» لتحديد الكليات التى يمكنهم الالتحاق بها ،وكان جميعهم مثله من القسم العلمى ومن الطبيعى أن تكون وجهتهم كليات الطب أو العلوم أو الصيدلة أو الهندسة، إلا أن معظمهم لا تسمح له درجاته لدخول أى منها إلا الراوى فكان من الممكن أن يلتحق بكلية العلوم، ولكن منفرداً بعيداً عن (الشلة)

والأصدقاء فأصابه ذلك بقلق شديد فكيف يكون وحيداً فى جامعة ومدينة صاخبة كالقاهرة دون زمالة أى من الأصدقاء.

ووسط هذه الحيرة والقلق جاءه صديق الطفولة وزميل الروضة «حسن الشهاوى»، ليزف له خبر قبول كلية التجارة جامعة إبراهيم باشا للحاصلين على التوجيهيه من القسم العلمى أيضاً، وأنه سيسافر لتقديم أوراقه، ثم تلاه محمد شقير ومحمد حسن شقير، فما كان منه إلا أن لحقهم لتقديم أوراقه لكلية التجارة أيضاً، مع استغراب والده لهذا الاختيار الذى يتناقض مع هواياته العلمية والفنية، ودون إعتراض منه. فهو صاحب مبدأ كل إنسان حر فى اختياراته ومسئول عنها ، وقد كان ما كان.

آمل أن يمهلنى الأجل لأحكى عن تلك الفترة فى الجزء الثانى من ومضات الذاكرة إنشاء الله.



الفهرس